فلسفة

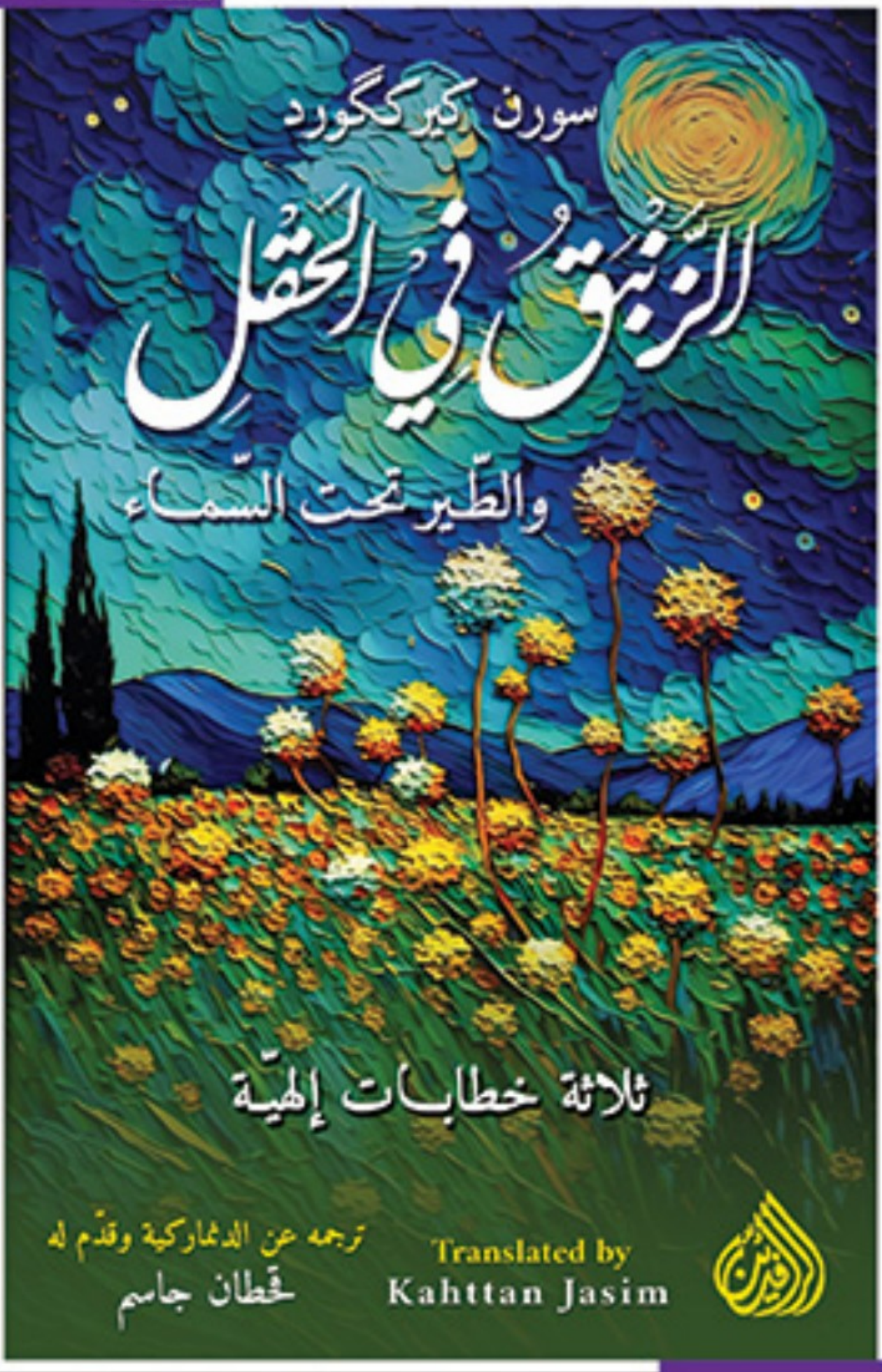
سورن كيركگورد
الزنبق في الحقل
والطير تحت السماء
ثلاثة خطابات إلهية
ترجمه عن الدنماركية وقدّم له
قحطان جاسم
Translated by
Kahttan Jasim

الزَّنبقُ في الحَقلِ

والطّير تحت السّماء

الزّنبق في الحقل والطّير تحت السّماء
ثلاثة خطابات إلهيّة

سورن كيركگورد

ترجمه عن الدنماركية وقدّم له: قحطان جاسم

تُرجِمَ كتاب (الزّنبق في الحقل والطّير تحت السّماء) من الدنماركية طبقاً للأعمال الكاملة لسورن كيركگورد:

Søren Kierkegaards Samlede værker, Sadier på livets vej
København, Gyldendaliske Boghandel Nordisk forlag,
København, 1905, bind XI.
Udgivet
A. B. Drachmman, J. L. Heiberg og H.O. Lange

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:
The Lily of the Field and The Bird of the Air
Translated by Kahtan Jassim

الطبعة الأولى: أيار ـ مايو، 2025 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyright@Dar Al _ Rafidain 2025

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved
حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 721 - 84 - 2

سورن كيركگورد

الزّنبق في الحقل
والطّير تحت السّماء

ثلاثة خطابات إلهيّة

ترجمه عن الدنماركية وقدّم له

قحطان جاسم

www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدّمة7
صلاة9
إنجيل الأحد الخامس عشر بعد الثالوث11
I **«انظروا إلى طيور السماء، واعتبروا بزنابق الحقل»**13
II 45
III «انظر إلى طيور السماء! إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في الحظائر» غير قلقة في الغد77

مقدّمة

هذا الكتاب الصغير الذي يذكّرني ـ فيما يتعلق بظروف ظهوره ـ بمقدّمتي الأولى، وعلى وجه الخصوص المقدمة الأولى لكتابي الأول (خطابان بنّاءان) الصادر عام 1843، والذي ظهر مباشرة بعد كتاب (إما ـ أو)؛ سيعيد إلى الأذهان الذكريات نفسها لدى ذلك الفرد المنفرد الذي أسمّيه بكل سرور وامتنان «قارئي». «إنه يرغب في أن يبقى في الخفاء، تماماً كما ظهر سراً إلى الوجود؛ زهرة صغيرة مختبئة في الغابة الكبيرة». ستُذكّر الظروف القارئ بهذا، وآمل أن تُذكّره أيضاً ـ كما تُذكّرني أنا ـ بمقدّمة (خطابان بنّاءان) من عام 1843. «لقد قدَّمَ باليد اليمنى»، على عكس الاسم المستعار، الذي كان ـ ولا يزال ـ يُقدَّم باليد اليسرى.

5 أيار/مايو 1849

س. ك.

صلاة

أبانا الذي في السماء! إنّ ما نواجهُ صعوبةً كبيرة في تعلّمه في صحبة الآخرين، لا سيَّما في حشد من الناس، والذي إذا تعلّمناه في مكان آخر، ننساه بسهولة في صحبة الآخرين، لا سيَّما في حشد من الناس: ما معنى أن تكون إنساناً، وما المطلوب فيما يتعلق باللّه؟

أن تكون إنساناً، كان علينا أن نتعلّمه، وإذا ما نسينا فعلينا أن نتعلّمه من الزّنبق والطير مرة أخرى. كان علينا أن نتعلّمه ـ إن لم يكن دفعة واحدة، فشيئاً منه على الأقل ـ شيئاً فشيئاً، وعلينا أن نتعلّم ـ هذه المرة ـ من الزنبق والطير الصمتَ والطاعةَ والفرح.

إنجيل الأحد الخامس عشر بعد الثالوث(1)

ما من أحد في وسعه أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يُبغضَ أحدهما ويحب الآخر، وإمّا أن يلزمَ أحدهما ويزدري الآخر. ليس بإمكانكم أن تخدموا اللّه والمال؛ لذلك أقول لكم: لا يُهمّكم للعيش ما تأكلون وما تشربون، ولا للجسد ما تلبسون. أليست الحياة أعظم من الطعام، والجسد أعظم من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء، لا تزرعُ ولا تحصدُ ولا تجمعُ في مخازن، وأبوكم السماوي يرزقها. أفلستم أنتم أعظم منها كثيراً؟ ومن منكم يستطيع أن يضيف إلى حياته مقدار ذراع واحدة، حتى لو قلقتم بشأن ذلك؟ ولماذا تقلقون بشأن اللّباس؟ اعتبروا بزنابق الحقل كيف تنمو، لا تجهدُ ولا تغزل. وأقول لكم: إنَّ سليمان نفسه لم يلبس في كل مجده مثل واحدة منها. فإذا كان عشب الحقل ــ وهو يوجد اليوم ويلقى في التنور غداً ــ يُلبِسُه اللّه هكذا، فما أحرى به أن يُلبسكم، يا قليلي الإيمان! لذا لا تقلقوا قائلين: «ماذا نأكل؟» أو «ماذا نشرب؟» أو «ماذا نلبس؟» فهذا كله يسعى إليه الوثنيون، وأبوكم السّماوي يَعلمُ أنكم تحتاجون إلى هذا كلّه، ولكن اطلبوا أولاً ملكوت اللّه وبِرّه، وكل هذه الأشياء تُزاد لكم. لذلك لا تقلقوا بشأن الغد، لأن الغد سوف يقلق على نفسه، ولكل يوم من العناء ما يكفيه. (متّى 6: 24 – 34).

I

«انظروا إلى طيور السماء، واعتبروا بزنابق الحقل»

ربما تقولُ مع الشاعر، ويروق لك كثيراً أن يتحدث الشاعر بهذه الطريقة: آه! يا ليتني كنت طائراً! أو ليتني كنت مثل الطير! مثل الطير الحر، المملوء بهيام التجوال، الذي يطير بعيداً، بعيداً فوق البحر والبر، قريباً جداً من السماء، إلى أراضٍ بعيدة بعيدة. يا للأسف على نفسي! أشعر بأنني مقيد، وثانية مقيد ومسمّر في المكان الذي تميزني فيه الهموم والمعاناة والصعوبات اليومية، وأن هذا هو المكان الذي أعيشُ فيه طوال حياتي كلّها! آه! ليتني كنت طائراً! أو ليتني كنت مثل طائر أخف من كل الأعباء الأرضية، يحلق في الهواء، أخف من الهواء! آه! ليتني كنت مثل ذلك الطير الخفيف، الذي حينما يبحث عن موطئ قدم، يبني عشه حتى على سطح البحر![2] يا للأسف! أنا، الذي تجعلني حتى أقل حركة ــ إذا تحركت فقط ــ أشعر بالعبء الذي يقع على عاتقي! آه! ليتني كنت طيراً! أو ليتني كنت مثل طير، متحرراً من كل الاعتبارات، مثل الطير الصغير المغرد الذي يغني بتواضع، حتى لو لم يستمع أحد إليه، أو يغني بفخر، حتى لو لم يستمع أحد إليه. للأسف! أنا الذي ليس لدي لحظة أو أي شيء لنفسي، ولكنّني خُصصت لأخدم آلاف الاعتبارات! أوه! ليتني كنت زهرة! أو كنت مثل الزهرة في المرج، أعشق نفسي بسعادة، ومن ثم الخاتمة![3] وا حسرتاه على نفسي! أنا، الذي أشعر بانقسام القلب البشري في قلبي أيضاً، لا أستطيع أن أكون قادراً على الانفصال عن كل شيء بأنانية، أو قادراً على التضحية بكل شيء بمحبة!

وهكذا هو حال الشاعر؛ حين الاستماع إليه سطحياً، يبدو الأمر ــ تقريباً ــ وكأنه يقول ما يقوله الإنجيل، فهو في الواقع يمتدح سعادة الطير والزنبق بأقوى العبارات، ولكن لنستمع إلى المزيد الآن: لذلك، يكاد يكون من القسوة أن يمدح الإنجيل الزنبق والطير قائلاً: «ستكونان مثلهما». يا للأسف! أنا الذي تكون فيه الأمنية صادقة جداً، صادقة جداً، صادقة جداً «آه! ليتني كنت مثل طير السماء ومثل زنبقة في الحقل!»، ولكن من المستحيل بالتأكيد أن أكون هكذا، وهذا هو بالضبط السبب وراء كون الرغبة شديدة الحماسة، وحزينة للغاية، ومع ذلك فهي مشتعلة في داخلي. كم هو قاسٍ إذن أن يتحدث الإنجيل معي على هذا النحو! في الواقع، يبدو كأنه يريد أن يجبرني على فقدان عقلي، وأن أكون ما أنا عليه بعمق شديد فحسب ــ ومثل الرغبة الموجودة في داخلي ــ أشعر أنني لست موجوداً ولا أستطيع أن أكون. لا يمكنني أن أفهم الإنجيل؛ فهناك اختلاف في اللغة بيننا، ولو فهمته لقتلني.

وهكذا هي الحال دائماً مع «الشاعر» فيما يتعلق بالإنجيل، والأمر نفسه بالنسبة إليه أيضاً فيما يتعلق بحديث الإنجيل عن أنه طفلٌ. يقول الشاعر: «آه! ليتني كنت طفلاً! أو ليتني كنت مثل طفل![4] وا حسرتاه! طفل بريء وسعيد. وا حسرتاه! لقد أصبحت عجوزاً ومذنباً وحزيناً قبل الأوان!».

أمر مُستغرب، فمن الطبيعي أن يقال بحق: إن الشاعر طفل. ومع ذلك، لا يستطيع الشاعر أن يتوصل إلى تفاهم مع الإنجيل، ذلك أن حياة الشاعر تقوم في واقع الأمر على اليأس من قدرته على أن يصبح ما يتمناه، وهذا اليأس هو الذي يولد «الأمنية»، ولكن «الأمنية» هي اختراع البؤس. ربما توفر الأمنية عزاءً للحظة، ولكن عند الفحص الدقيق يمكننا أن نرى أنها لا تقدّم، في الواقع، أيّ عزاء، ولذلك نقول: إن الأمنية هي العزاء الذي يخترعه الإحباط. تناقضٌ ذاتي غريب! نعم، ولكن الشاعر أيضاً هو هذا التناقض الذاتي. الشاعر هو ابن الألم، الذي يسميه أبوه، مع ذلك، ابن الفرح.[5] في الألم تولد الأمنية في الشاعر؛ وهذه الأمنية، هذه الأمنية الملتهبة، تبهج قلب الإنسان أكثر مما يبهجه الخمر، وأكثر من برعم الربيع المبكر، وأكثر من النجمة الأولى، وأكثر من أول نجمة يُحييها بفرح الإنسان المتعب من النهار في شوق إلى الليل، أكثر من آخر نجمة في السماء يودعها الإنسان حين ينبلج النهار. الشاعر هو ابن الأبدية، ولكن تعوزه جدية الأبدية. حين يفكر في الزنبقة والطير يبكي، وحين يبكي يجد راحة كليّة في البكاء، وتظهر الأمنية إلى الوجود، ومع بلاغة الأمنية: «آه! يا ليتني كنت طائراً!» الطير الذي قرأت عنه في كتاب الصور لمّا كنت طفلاً؛ «ليتني كنت زهرة في الحقل!» الزهرة التي كانت في حديقة أمي. ولكن إذا قيل له مع الإنجيل: «هذه هي الجديّة، هذه هي الجديّة. على وجه التحديد، إن الطير هو المعلم بجدية»، فلا بدّ أن يضحك، وهو يسخر من الطير والزنبقة بذكاء شديد إلى درجة يجعلنا فيها جميعاً نضحك، حتى أكثر الناس الذين عاشوا جديّة، ولكنه لا يُؤثر في الإنجيل بهذه الطريقة. إن الإنجيل جديّ للغاية، إذ إن حزن الشاعر كلّه يخفق في تغييره، على الرغم من أنه يغير حتى أكثر الناس جدية، إلى درجة أنه يستسلم لحظةً، ويتماشى مع أفكار الشاعر، ويتنهد معه ويقول: يا عزيزي! هل هذا مستحيل حقاً بالنسبة إليك؟ حسناً، إذن، لا أجرؤ على القول أيضاً: «يجب عليك ذلك». غير أن الإنجيل يجرؤ على أن يأمر الشاعر بأن يكون مثل الطير، والإنجيل جديّ إلى درجة أن اختراع الشاعر الذي لا يقاوم لا يجعله يبتسم.

يجب أن تصبح طفلاً مرة أخرى، ولتحقيق هذه الغاية، يجب أن تكون قادراً وراغباً في فهم الكلمة التي تبدو وكأنها موجهة إلى الطفل، والتي يفهمها كل طفل. يجب أن تفهم تلك الكلمة كما يفهمها الطفل: «يجب عليك». لا يسأل الطفل أبداً عن الأسباب؛ لا يجرؤ على القيام بذلك، ولا يحتاج إلى ذلك أيضاً، والأمران يتوافقان، لأن الطفل يرى أن ذلك سبب كافٍ للقيام بذلك. في الواقع، لن تكون جميع الأسباب مجتمعة سبباً كافياً للطفل إلى هذا الحد، ولا يقول الطفل أبداً: «لا أستطيع». لا يجرؤ على القيام بذلك، وليس صحيحاً أيضاً أن أحدهما يتوافق تماماً مع الآخر، إن الطفل لا يجرؤ، بالضبط، على القول: «لا أستطيع»، لذا ليس صحيحاً أنه لا يستطيع، ومن ثم يتبين الحقيقة وهي أنه يستطيع فعل ذلك، لأنه من المستحيل عدم القدرة حين لا يجرؤ المرء على القيام بشيء آخر. لا شيء أكثر يقيناً. يتعلق الأمر فحسب بأنه من المؤكد لا يجرؤ على القيام بشيء آخر. ولا يبحث الطفل أبداً عن مهرب أو عذر، لأن الطفل يفهم الحقيقة المرعبة، أنه لا مفر ولا عذر لذلك، ولا يوجد مكان للاختباء، لا في السماء ولا على الأرض، لا في الصالون ولا في الحديقة، حيث يمكنه أن يختبئ من هذه «يجب عليك». وحين يكون من المؤكد للإنسان أنه لا يوجد مثل هذا المخبأ، فلن يكون هناك أيّ مهرب ولا عذر. وحين يعرف المرء الحقيقة المرعبة التي مفادها أنه لا يوجد مهرب أو عذر، فإنه يمتنع بطبيعة الحال عن العثور عليها، لأن ما لا يوجد لا يمكن العثور عليه، ولكن يمتنع أيضاً عن البحث عنه، ثم يفعل المرء ما ينبغي له فعله. ولا يحتاج الطفل أبداً إلى قضاء وقت طويل في التفكير، لأنه حين يفعل ذلك ــ وربما على الفور ــ لن تكون هناك فرصة للتفكير؛ وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، حين يفعل ذلك على الرغم من كل شيء ــ نعم، حتى لو أعطيناه وقتاً أبدياً للتفكير ــ فلن يحتاج الطفل إليه. سيقول الطفل: «لماذا كل هذا الوقت، إذا كان يتوجب عليّ في نهاية المطاف أن أفعل ذلك؟» وإذا حصل الطفل على الوقت، فمن المؤكد أنه سيستخدم الوقت بطريقة أخرى، للعب والمتعة ونحو ذلك، لأن ما يتوجب على الطفل سيفعله، وهذا غير قابل للتغيير، وليس له أي علاقة بالتفكير على الإطلاق.

لذلك دعونا ننظر بجدية، وفقاً لتعليمات الإنجيل، إلى الزنبقة والطير كمُعلِّمَين. بكل جدية، لأن الإنجيل ليس مدَّعيا فكرياً، إذ إنه غير قادر على الاستفادة من الزنبق والطير؛ ولكنه أيضاً ليس دنيوياً إلى درجة أنه لا يستطيع إلا أن ينظر إلى الزنبق والطير بحزن أو بابتسامة.

دعونا نتعلم الصمت من الزنبق والطير كمُعلِّمين، أو لنتعلم كيف نلتزم الصمت. فالكلام هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان، وإذا شئت، أعلى بكثير من الزنبق.[6] ولأن القدرة على الكلام هي ميزة، فهذا لا يعني أن القدرة على الصمت لا وجود لها في الفن، أو أنها ستكون فناً أدنى. على العكس من ذلك، لأن الإنسان، على وجه التحديد، لديه القدرة على التحدث، فإن القدرة على التزام الصمت هي فن؛ لأن هذه الميزة، بالتحديد، تغريه بسهولة. لذا، فإن القدرة على التزام الصمت هي فن عظيم، ولكن يمكنه تعلم هذا من المُعلِّمين الصامتين، الزنبقة والطير.

«اطلبوا أولاً ملكوت اللّه وبره».

ولكن، ماذا يعني هذا؟ ما الذي عليّ أن أفعله؟ أو ما نوع الجهد الذي يمكن القول عنه إنه يسعى إلى ملكوت اللّه، ويطمح إليه؟ هل أسعى إلى الحصول على منصب يتوافق مع قدراتي ونقاط قوتي، حتى أكون فعالاً فيه؟ لا، عليك أولاً أن تسعى إلى ملكوت اللّه.

هل أمنح كل ثروتي للفقراء، إذن؟ لا، عليك أولاً أن تسعى إلى ملكوت اللّه.

فهل أخرج ــ إذن ــ وأبشر بهذه التعاليم إلى العالم؟ لا، عليك أولاً أن تسعى إلى ملكوت اللّه.

ولكن، بمعنى ما، ألا يوجد في الواقع ما أفعله؟ نعم، هذا صحيح تماماً. بمعنى ما، لا يوجد شيء. يجب عليك بالمعنى العميق أن تجعل نفسك لا شيء، وتصبح لا شيء أمام الله، وتتعلم الصمت. في هذا الصمت تكون البداية، وهي أولاً طلب ملكوت الله.

وهكذا، بطريقة تقيّة، يأتي الإنسان، بمعنى ما، من الوراء إلى البداية. ليست البداية هي ما يبدأ به الإنسان، بل ما يأتي إليه، ويأتي إليه من الوراء. البداية هي الفن، بأن تكون صامتاً؛ فأن تكون صامتاً مثل الطبيعة هو ليس فناً. وبالمعنى الأعمق، أن تكون صامتاً، صامتاً أمام الله، هي بداية مخافة الله، فكما أن مخافة الله هي بداية الحكمة، كذلك الصمت هو بداية مخافة الله. وكما أن مخافة الله هي أكثر من مجرد بداية الحكمة، فالصمت أكثر من مجرد بداية مخافة الله؛ إنه «مخافة الله». وفي هذا الصمت، تصمت العديد من أفكار التمني والرغبة في مخافة الله، وفي هذا الصمت، يصمت الإسهاب في الشكر من مخافة الله.

إن من ميزات الإنسان على الحيوان هي القدرة على الكلام، ولكن الرغبة في الكلام بالنسبة إلى الله يمكن أن تتحول بسهولة إلى مفسدة للإنسان القادر على الكلام، أو يريد أن يتكلم. إن الله موجود في السماء، والإنسان موجود على الأرض، ولذلك لا يمكنهما التحدث مع بعضهما بعضاً بشكل جيد.

إن الله هو الحكمة اللامتناهية، وما يعرفه الإنسان هو مجرد ثرثرة فارغة؛ ولذلك لا يستطيعان أن يتحدثا فيما بينهما بشكل جيد. إن الله محبة، والإنسان ـ كما يقال لطفل ـ أحمق صغير بعض الشيء، حتى فيما يتعلق بمصلحته، لذلك لا يمكنهما التحدث بشكل جيد مع بعضهما بعضاً. لا يستطيع الإنسان أن يتحدث مع الله إلا في خوف شديد ورعشة؛ بكثير من الخوف والرعشة، ولكن التحدث بكثير من الخوف والرعشة أمر صعب لسبب آخر، فكما أن الفزع يجعل الصوت متلعثماً بمعنى فيزيولوجي، كذلك يجعل الخوف والرعشة الصوت يخرس في صمت. هذا ما يعرفه من يصلي على الوجه الصحيح، وربما يكون هذا هو بالضبط ما تعلمه من لم يصلّ على الوجه الصحيح في صلاته. كان هناك شيء ما يشغل باله كثيراً، وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة إليه؛ أن يفهمه الله على النحو الصحيح؛ كان خائفاً من أنه ربما نسي شيئاً في صلاته. وللأسف! إذا نسيه، كان يخشى ألّا يتذكره الله من تلقاء نفسه، لذلك أراد أن يجمع أفكاره ويصلي بحرارة حقيقية. ولمّا صلّى بصدق، ماذا حدث له؟ حدث له شيء غريب وعجيب؛ فمع ازدياد حماسته في الصلاة، أصبح لديه شيءٌ أقل فأقل ليقوله، وأخيراً أصبح صامتاً تماماً. لقد أصبح صامتاً، بل أصبح، إن أمكن، أكثر من الصمت، نقيضاً لما يعني أن تتحدث، لقد صار مستمعاً. لقد كان يعتقد أن الصلاة هي أن يتحدث. لقد تعلم أن الصلاة ليست مجرد صمت، بل هي الإصغاء. وهذا هو الحال، أن تصلي ليس هو أن تصغي إلى الذات وهي تتحدث، بل هو أن تلتزم الصمت، وأن تستمر فيه، وأن تنتظر، حتى يسمع الشخص المصلي الله.

لذلك فإن كلمات الإنجيل: «اطلبوا أولاً ملكوت الله»، تُربي، كما لو أنها تكمم فم الإنسان، على كل سؤال يطرحه حول ما إذا كان هذا هو ما ينبغي أن يفعله، بأن يجيب: لا، بل يجب عليك أن تطلب ملكوت الله أولاً. ولهذا السبب يمكن إعادة صياغة كلمات الإنجيل هذه على النحو الآتي: «عليك أن تبدأ بالصلاة، ليس كما لو أن الصلاة ـ كما بيّنّا ـ تبدأ دائماً بالصمت، ولكن لأن الصلاة حين تصبح صلاةً حقاً، تصبح صمتاً». اطلبوا أولاً ملكوت الله، أي صلّوا. إذا سألت، بل إذا كنت في سؤالك قد تناولت كل شيء على حدة، متسائلاً: «هل هذا ما سأفعله؟ وإذا فعلته، فهل هذا إذن طلب ملكوت الله؟»، فإن الإجابة عن ذلك تكون: «لا، بل يجب عليك أولاً أن تطلب ملكوت الله»، ولكن الصلاة، أي الصلاة الصحيحة، تعني الصمت، وهذا يعني طلب ملكوت الله أولاً.

يمكنك أن تتعلم هذا الصمت من الزنبقة والطير، أي إن صمتهما ليس فناً، ولكن حين تصمت مثل الزنبقة والطير، فأنت في البداية، وهي أن تبحث عن ملكوت الله أولاً.

كم هو مهيب ذلك المكان تحت سماء الله مع الزنبق والطير! لماذا؟ اسأل «الشاعر»، فيجيب: لأن هناك صمتاً. وإلى ذلك الصمت المهيب يتوق الخروج، بعيداً عن دنيوية عالم البشر، حيث يكثر الكلام. بعيداً عن كل الحياة الدنيوية للبشر، التي لا تبيّن إلا بطريقة مؤسفة أن الكلام هو الذي يميز البشر عن الحيوانات. لأنه، كما يقول الشاعر: «هل هذه حقاً طريقة لتمييز الذات؟ لا، فأنا أجد الصمت هناك في الخارج أفضل كثيراً، وأفضّله. لا مجال للمقارنة، فهو يتميز بلا حدود عن البشر القادرين على الكلام»، ذلك أن الشاعر يتصور أنه يدرك صوت الله في صمت الطبيعة، وهو لا يتصور أنه يسمع صوت الله في حديث البشر الصاخب، بل لا يتصور أنه يستطيع أن يدرك أن البشرية لها قرابة مع الإله. يقول الشاعر: الكلام هو ميزة الإنسان على الحيوان، بالتأكيد، إذا استطاع أن يبقى صامتاً.

ولكن لكي تكون قادراً على الصمت، يمكنك أن تتعلم ذلك هناك مع الزنبقة والطير، حيث يوجد صمت، وأيضاً شيء إلهي في هذا الصمت. هناك في الخارج صمت؛ ليس فقط حين يكون كل شيء صامتاً في الليل الصامت، ولكن أيضاً حينما يتحرك النهار عبر آلاف الأوتار، ويكون كل شيء مثل بحر من الأصوات. لا يزال هناك صمت، كل وتر منها على وجه الخصوص يفعل ذلك بشكل جيد، بحيث لا أحد منها يفعل أي شيء لكسر الصمت المهيب. هناك صمت في الخارج؛ الغابة صامتة. حتى حينما تهمس، فهي صامتة، والأشجار، حتى في الأماكن التي تكون متلاصقة، تحافظ على وعدها لبعضها بعضاً، وهو نادراً ما يفعله البشر، على الرغم من الوعود التي قطعوها لبعضهم بعضاً؛ بأن «هذا سيبقى بيننا». البحر صامت. حتى حين يحتدم بصخب، فهو صامت. ربما تخطئ السمع في البداية، وتسمعه يغضب، وإذا اندفعت بعيداً ومضيت بهذه الرسالة، فإنك تظلم البحر، ولكن من ناحية أخرى، إذا أخذت وقتك وأصغيت بعناية، فسوف تسمع ـ يا له من أمر مدهش! ـ سوف تسمع الصمت. فالتجانس هو بالتأكيد صمت أيضاً. حين يخيم صمت المساء على الريف، وتسمع خوار الماشية في المرج من بعيد، أو تسمع صوت الكلب المألوف من بيت المزارع، لا يمكنك أن تقول إن هذا الخوار أو صوت الكلب يزعج الصمت. كلا، هذا جزء من الصمت، وله سر، ومن ثم تفاهم صامت مع الصمت. إنه يزيده.

والآن دعونا ننظر عن كثب إلى الزنبقة والطير اللذين سنتعلم منهما. يظلّ الطير صامتاً وينتظرُ، فهو يعرف، أو بالأحرى يؤمن تماماً وبقوة، أن كل شيء يحدث في وقته المحدد، لذلك ينتظرُ، ولكنه يعرف أنه لا يجوز له معرفة الساعة أو اليوم، ولذلك يلتزم الصمت. يقول الطير: «من المؤكد أن ذلك سيحدث في الوقت المحدد». لا، لا يقول الطير هذا، بل يلتزم الصمت، ولكن صمته يتكلم، وصمته هذا يقول إنه يؤمن به، ولأنه يؤمن به فإنه يلتزم الصمت وينتظرُ. وحين تأتي هذه اللحظة، يفهم الطير الصامت أن هذه هي اللحظة، فيستغلها ولا يخجل أبداً. وهكذا هي الحال أيضاً مع الزنبقة، إذ تلتزم الصمت وتنتظرُ. إنها لا تسأل بفارغ الصبر «متى يأتي الربيع؟»، لأنها تعلم أنه سيأتي في الوقت المحدد، وتعلم أنها لن تستفيد بأي شكل من الأشكال إذا سُمح لها بتحديد فصول السنة. فهي لا تقول «متى سنحصل على المطر؟»، أو «متى سنحظى بأشعة الشمس؟»، أو «لقد هطلت أمطار غزيرة علينا الآن»، أو «الآن أصبح الجو حاراً للغاية». ولا تسأل مقدماً كيف سيكون الصيف هذا العام؟ هل سيكون طويلاً أم قصيراً؟ كلا، إنها تلتزم الصمت وتنتظر. إنها بسيطة جداً، ولكنها مع ذلك لا تخدع أبداً، وهو ما لا يمكن أن يحدث بالتأكيد إلا للذكاء، وليس للبساطة، التي لا تَخدَع ولا تُخدَع. ثم تأتي اللحظة، وعندئذٍ تفهم الزنبقة الصامتة أن الآن هي اللحظة وتستخدمها.

آه! أيها المعلمان العميقان للبساطة! ألا ينبغي أن يكون من الممكن أيضاً، أن نواجه «اللحظة» وقت التحدث؟ لا، من خلال الالتزام بالصمت فقط يمكن للمرء أن يواجه اللحظة. حين نتحدث، ولو كلمة واحدة فقط، فإننا نضيع اللحظة؛ وفي الصمت وحده تكون اللحظة. وهذا هو بالتأكيد السبب في أنه نادراً ما يفهم الإنسان تماماً متى تحين اللحظة، وكيف يستخدم اللحظة بشكل صحيح، لأنه لا يستطيع الصمت. إنه لا يستطيع الصمت والانتظار، وربما يفسر هذا سبب عدم وصول اللحظة الملائمة إليه على الإطلاق. إنه لا يستطيع أن يبقى صامتاً، وربما يفسر هذا سبب عدم الشعور باللحظة لمّا جاءت إليه. وعلى الرغم من أن اللحظة حبلى بالدلالة الغنية، فإنها لا ترسل أي نذير مقدماً ليعلن وصولها. فضلاً عن ذلك، فهي تأتي بسرعة كبيرة حين تأتي، فلا توجد لحظة واحدة من الوقت تسبقها. كما أن اللحظة ـ مهما كانت ذات أهمية في حد ذاتها ـ لا تأتي مع صخب أو صراخ، بل تأتي بهدوء، وبخطوة أخف من مشية أي مخلوق، لأنها تأتي بخطوة خفيفة مفاجئة؛ تأتي خلسة. لذلك يجب على المرء أن يكون صامتاً تماماً، إذا كان عليه أن يشعر «أنها الآن هناك»، وفي اللحظة التالية فإنها تختفي، ولذلك يجب على المرء أن يكون صامتاً تماماً إذا كان له أن ينجح في الاستفادة منها. ومع ذلك، كل شيء يعتمد على «اللحظة». ولعل هذا هو بالتأكيد سوء الحظ في حياة معظم الناس، أنهم لم يدركوا «اللحظة» قط، وأن الأبدي والزمني منفصلان في حياتهم حصراً. ولماذا؟ لأنهم لم يتمكنوا من التزام الصمت.

الطير يصمت ويتألّم، ومهما كان حجم الألم الذي يعانيه، فإنه يلتزم الصمت. حتى الحمامة الحزينة في الصحراء أو الوحيدة تبقى صامتة. إنها تتنهد ثلاث مرات وتظل صامتة، ثم تتنهد ثلاث مرات أخرى، ولكنها في الأساس تظل صامتة. فهي لا تقول ما هي، ولا تشكو، ولا تئهم أحداً؛ إنها تتنهد فقط لتعود إلى الصمت مرة أخرى. وفي الواقع، قد يجعلها الصمت تنفجر، لذا عليها أن تتنهد حتى تصمت. لا يخلو الطير من المعاناة، ولكن الطير الصامت يحرر نفسه مما يجعل المعاناة أكثر عبئاً، ومن تعاطف الآخرين الذي يُساء فهمه؛ يحرر نفسه مما يجعل المعاناة تدوم وقتاً أطول، ومن كثرة الحديث عن المعاناة، يتحرر مما يجعل المعاناة أسوأ من المعاناة؛ من خطيئة عدم

الصبر والحزن. لا تظنوا أن الطير يتصرف بنوع من الخداع بالتزامه الصمت حين يتألم. لا تظنوا أنه مهما كان صامتاً تجاه الآخرين، ليس صامتاً في الواقع في أعماقه، حيث يشكو من مصيره ويتّهم الله والبشر، ويترك «قلبه الحزين يرتكب الخطيئة».(7) كلا، إن الطير يلتزم الصمت ويعاني. للأسف! لا يفعل الانسان هذا. ولكن، لماذا تبدو المعاناة الإنسانية، قياساً على معاناة الطيور، مخيفة للغاية؟ أليس لأن بمقدور الإنسان أن يتكلم؟ لا، ليس بسبب ذلك. إن ذلك بالتأكيد مزيّة، ولكن، لأن الإنسان لا يستطيع أن يلتزم الصمت. لا، ليس الوضع كما يتصور الشخص عديم الصبر، بل بشكل أكثر تأكيداً، الشخص اليائس الذي يظن أنه يفهم ذلك حين يقول أو يصرخ (وهذا بحد ذاته إساءة استخدام للكلام والصوت): «ليتني أمتلك صوتاً مثل صوت العاصفة، حتى أتمكن من التعبير عن كل معاناتي كما أشعر بها!»

آه! لن يكون هذا إلا علاجاً سيئاً، فبقدر ما يفعل ذلك، فإنه لن يشعر إلا بمعاناته بشكل أقوى. لا، ولكن إذا تمكنت أن تصمت، إذا كان لديك صمت الطير، فإن المعاناة بالتأكيد أقل.

وكما هو الحال مع الطير كذلك الزنبقة تلتزم الصمت. حتى إن كانت تقف وتتألم وهي تذبل، فإنها تبقى صامتة. لا يستطيع الطفل البريء أن يتظاهر، ولا يُطلب منه ذلك أيضاً، ومن حسن حظ الطفل أنه لا يستطيع ذلك، لأن فن القدرة على التظاهر ثمنه باهظ. لا تستطيع الزنبقة أن تخفي نفسها، لا تستطيع أن تفعل شيئاً نحو حقيقة تغير لونها، فهي تكشف شيئاً نعرفه بالتأكيد من هذا التغير الشاحب في لونها؛ وهو أنها تعاني لكنها تظل صامتة. إنها ترغب في أن تبقى منتصبة لتخفي ما تعانيه، ولكنها تفتقر إلى القوة والسيطرة على نفسها، لذلك مال رأسها إلى الأسفل منهكاً ومنحنياً. يفهم المار ـ إذا كان هناك أي عابر سبيل لديه من التعاطف ما يكفي لملاحظة ذلك ـ يفهم ما يعنيه هذا، فهو بليغ بما فيه الكفاية، ولكن الزنبقة تظل صامتة. هذا هو الحال مع الزنبقة، ولكن كيف يمكن أن تبدو المعاناة الإنسانية، قياساً على معاناة الزنبقة، مخيفةً إلى هذا الحد؟ أليس ذلك لأنها لا تستطيع الكلام؟ إذا كانت زهرة الزنبق قادرة على الكلام، وإذا كانت لم تتعلم مثل الإنسان، للأسف، فن الصمت، ألا تصبح معاناتها مخيفة أيضاً؟ لكن الزنبقة تظل صامتة. بالنسبة إلى الزنبقة، المعاناة هي معاناة، لا أكثر ولا أقل. ولكن حين تكون المعاناة كذلك، فإنها تضيق وتتضاءل قدر الإمكان. لا يمكن أن تصبح المعاناة أقل، لأنها بالتأكيد كذلك، ومن ثم هي ما هي عليه. ولكن من ناحية أخرى، يمكن أن تصبح المعاناة أعظم إلى ما لا نهاية حين لا تصبح بالضبط أكثر أو أقل مما هي عليه. حين لا تكون المعاناة أكثر ولا أقل، أي حين تكون هي ما هو محدد فقط، فهي ـ وإن كانت أعظم معاناة ـ أقل ما يمكن أن تكون عليه. ولكن حين يصبح من غير المحدد مدى عظمة المعاناة حقاً، تصبح المعاناة أعظم؛ وعدم التحديد هذا يزيد المعاناة إلى ما لا نهاية. وينشأ عدم التحديد هذا بسبب المزيّة المشكوك فيها التي يتمتع بها الإنسان في قدرته على الكلام. بالمقابل، فإن تحديد المعاناة، بأنها ليست أكثر أو أقل مما هي عليه، لا يمكن بلوغها ثانية إلا من خلال القدرة على التزام الصمت، ويمكنك أن تتعلم هذا الصمت من الطير والزنبقة.

هناك في الخارج لدى الزنبقة والطير صمتٌ، ولكن ما الذي يعبر عنه هذا الصمت؟ إنه يعبر عن تبجيل الله، لأنه هو الذي ينصح، وهو وحده الذي له الحكمة والفهم. ولأن هذا الصمت هو على وجه التحديد مخافة لله، فهو عبادة كما يمكن أن يكون في الطبيعة، ولهذا السبب فهو مهيب للغاية. ولأن هذا الصمت مهيب على هذا النحو، فإن الإنسان يشعر بالله في الطبيعة. إذن، فما العجب أن يصمت كل شيء إجلالاً له؟! ولو لم يتكلم، فإن صمت كل شيء احتراماً له يؤثر فينا بطبيعة الحال كما لو كان هو متكلماً.

ما يمكنك تعلمه، على أي حال، من الصمت هناك مع الزنبقة والطير من دون مساعدة أي شاعر ـ ما يمكن أن يعلمك إياه الإنجيل وحده ـ هو أن الأمر جدي، وأنه سيكون جدياً، وأن الزنبقة والطير سيكونان المعلمين، وأنه يجب عليك أن تقلدهما، وتتعلم منهما بجدية تامة، وتصبح صامتاً مثلهما.

والحقيقة أن هذه هي الجدية بالفعل ـ حين نفهمها على نحو صحيح، ليس كما يفهمها الشاعر الحالم، أو الشاعر الذي يسمح للطبيعة أن تحلم به ـ وهي أنك هناك مع الزنبقة والطير تدرك أنك أمام الله، الذي يُنسى في أغلب الأحيان تماماً في أثناء الكلام والمحادثة مع الآخرين. فحين يتحدث اثنان منا معاً، أو أكثر من ذلك، حين نكون عشرة أو أكثر، فمن السهل أن ننسى أننا أمام الله، ولكن الزنبقة، التي هي المعلمة، تكون عميقة، فهي لا تنخرط معك على الإطلاق! إنها تلتزم الصمت، وبصمتها تريد أن تُفهمك بأنك أمام الله، وأنه يتوجب عليك أيضاً أن تظل صامتاً أمامه بكل جدية وصدق.

عليك أن تظل صامتاً أمام الله كالزنبقة والطير. لا ينبغي أن تقول: «يمكن للطير والزنبقة أن يظلا صامتين بسهولة، لأنهما ـ على أي حال ـ لا يستطيعان التحدث»؛ لا ينبغي أن تقول ذلك. يجب ألّا تقول شيئاً على الإطلاق، وألّا تقوم بأدنى محاولة لجعل التعليم في الصمت مستحيلاً. وبدلاً من التزام الصمت بشكل جدي، عن طريق خلط الصمت بحماقة وبلا معنى في الكلام، ربما كموضوع للكلام، بحيث لا يأتي شيء من الصمت، بل على العكس من ذلك، يأتي الكلام إلى الوجود كلاماً عن الصمت. لن تصبح ـ بالنسبة إلى نفسك ـ أكثر أهمية أمام الله من زنبقة أو طير، ولكن حين يصبح الأمر جدياً وحقيقياً أنك أمام لله، فإن الأخير سيتبع الأول. ولو كان ما تريد تحقيقه في العالم هو الإنجاز الأكثر روعة، فيجب أن تعترف بالزنبقة والطير معلّمين لك، وإلا تجعل نفسك أمام الله أهم من الزنبقة والطير. ولو لم يكن العالم كله كبيراً بما يكفي لاستيعاب جميع خططك حين تكشفها، فستتعلم مع الزنبقة والطير، معلّميك أمام الله، أن تكون قادراً على طيّ خططك معاً بسهولة، بحيث تحتل مساحة أقل من نقطة واحدة، وتصدر ضجيجاً أقل من أكثر الأشياء تفاهة، في صمتٍ. وإذا كان ما عانيته في العالم مؤلماً، مثل أي شيء لم تجربه من قبل على الإطلاق، فسوف تعترف بالزنبقة والطير معلّمين لك، ولن تصبح أكثر أهمية لنفسك منهما لنفسيهما في همومهما الصغيرة.

وهكذا يكون الحال حينما يجعل الإنجيل الأمر جدياً؛ أن الطير والزنبقة سيكونان المعلمين. والأمر مختلف مع الشاعر، أو مع الإنسان الذي لا يصمت تماماً في حضرة الزنبقة والطير، بل يصبح شاعراً، بسبب الافتقار إلى الجدية على وجه التحديد. والحقيقة؛ إن كلام الشاعر يختلف كثيراً عن الكلام البشري العادي، فهو مهيب جداً إلى الحد الذي يجعله شبيهاً بالصمت، قياساً على الكلام العادي، لكنه ليس صمتاً في الواقع. كما أن الشاعر لا يسعى إلى الصمت ليصمت، بل ليتمكن من الكلام، كما يتكلم الشاعر. هناك في الصمت، يحلم الشاعر بالإنجاز، الذي لن ينفذه، لأنه بالتأكيد ليس بطلاً، ويصبح بليغاً ـ ربما يصبح بليغاً على وجه التحديد ـ لأنه عاشق المأثرة التعس، في حين أن البطل هو عاشقها السعيد. وهكذا، لأن الحرمان يجعله بليغاً، كما يجعل الحرمان في الأساس الشاعرَ ـ فإنه يصبح بليغاً، وبلاغته هذه هي القصيدة. هناك في الصمت، يضع خططاً عظيمة لإعادة تشكيل العالم كله وجعله سعيداً، خططاً عظيمة لا تتحقق أبداً. لا، إنها تصبح بالتأكيد شعراً. هناك في الصمت، حيث يتأمل ألمه، يدع كل شيء ـ في الواقع، حتى المعلمين، الطير والزنبقة، يجب عليهما أن يخدماه بدلاً من تعليمه ـ ويجعل كل شيء يردد ألمه؛ وصدى هذا الألم هو القصيدة، لأن الصرخة ليست قصيدة على الإطلاق، لكن الصدى اللانهائي للصرخة في ذاته هو القصيدة.

وعليه، لا يصمت الشاعر في الصمت مع الزنبقة والطير. ولماذا لا؟

لأنه بسهولة يقلب العلاقة، ويجعل نفسه أكثر أهمية قياساً عليهما. حتى إنه يتخيل أنه يستحق الثناء، لأنه كما قيل، أعار الكلمات والكلام للطير والزنبقة، في حين أن المهمة كانت أن يتعلم هو نفسه الصمت منهما.

أوه! ولكن ليت الإنجيل ينجح، بمساعدة الزنبقة والطير، في تعليمك ـ يا مستمعي ـ الجدية، وفي تعليمي كيف أجعلك صامتاً تماماً أمام الله!

في الصمت، كان عليك أن تنسى نفسك، تنسى ما اسمك نفسك؛ الاسم المشهور، الاسم البائس، الاسم غير المهم، لكي تصلي إلى الله في صمتٍ: «ليتقدس اسمك!». وكان عليك أن تنسى نفسك بصمت، وخططك؛ الخطط الكبيرة الشاملة، أو الخطط المحدودة المتعلقة بحياتك ومستقبلها، لكي تصلّي في صمت إلى الله: «ليأتِ ملكوتك!». وعليك أن تنسى في الصمت إرادتك وعنادك، وتصلّي إلى الله في صمت: «لتكن مشيئتك!»

نعم، إذا كان بإمكانك أن تتعلم من الزنبقة والطير أن تبقى صامتاً تماماً أمام الله، ما الذي لا يستطيع الإنجيل مساعدتك في فعله؟

لن يكون هناك شيء مستحيل عليك، ولكن إذا كان الإنجيل، بمساعدة الزنبق والطير، قد علمك الصمت فحسب، فما الذي لم يساعدك حقاً في فعله؟! لأنه كما قيل إن مخافة الله هو بداية الحكمة والصمت هو بداية مخافة الله، يقول سليمان: اذهب إلى النملة وكن حكيماً، ويقول الإنجيل: اذهب إلى الطير والزنبقة وتعلم الصمت.

«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه». ولكن التعبير عن السعي أولاً إلى ملكوت الله هو بالتحديد الصمت؛ صمت الزنبقة والطير. الزنبقة والطير يطلبان ملكوت الله، لا شيء آخر على الإطلاق، وكل شيء باقٍ يضاف إليهما. لكن، ألا يطلبان ملكوت الله أولاً، إذا لم يطلبا أي شيء آخر على الإطلاق؟ إذن، كيف يقول الإنجيل: اطلبوا أولاً ملكوت الله، وبهذا يتظاهر في معناه، بأن هناك شيئاً آخر يجب السعي إليه بعد ذلك، مع أنه من الواضح أن وجهة نظر الإنجيل، هي أن ملكوت الله هو الشيء الوحيد الذي يجب البحث عنه؟ هذا بالتأكيد لأنه لا يمكن إنكار أن ملكوت الله لا يمكن طلبه إلا حين يُسعى إليه أولاً؛ ومن لا يطلب ملكوت الله أولاً، لا يسعى إليه على الإطلاق. ويترتب على ذلك أن القدرة على البحث تتضمن في حد ذاتها إمكانية القدرة على البحث عن شيء آخر، ولذلك، فإن الإنجيل، الذي يوجد في طبيعة الحال حتى الآن خارج الإنسان، قادر أيضاً أن يبحث عن شيء آخر. يقول: عليكم أن تسعوا إلى ملكوت الله أولاً. وأخيراً، فإن الإنجيل يتنازل بلطف ومحبة إلى الإنسان، ويقنعه شيئاً فشيئاً، لكي يجذبه إلى الخير. ولو قال الإنجيل على الفور: اطلبوا بسهولة وحصراً ملكوت الله، لكان من المؤكد أن الأمر يتطلب الكثير من الإنسان، وسوف ينسحب، نصف جزع ونصف خائف وقلقاً، ولكن الآن يتلاءم الإنجيل معه قليلاً. فهناك يقف الإنسان وينظر إلى الأشياء الكثيرة التي يريد أن يسعى إليها، فيخاطبه الإنجيل قائلاً: «اطلب ملكوت الله أولاً»، ثم يفكر الإنسان: «حسناً، إذا سُمح لي بعد ذلك بالبحث عن أشياء أخرى، اسمحوا لي بعد ذلك أن أبدأ في السعي إلى ملكوت الله». إذا بدأ بالفعل القيام بذلك، فإن الإنجيل يعرف جيداً ما سيأتي بعد ذلك، وهو سيكون في الواقع راضياً ومشبعاً جداً بهذا البحث إلى درجة أنه سوف ينسى بسهولة البحث عن أي شيء آخر، وليس هناك، في الواقع، ما يريد أن يفعله أقل من السعي إلى شيء آخر، لذلك أصبحت الآن حقيقة، أنه يسعى بسهولة وحصراً إلى ملكوت الله. هكذا يتحدث الإنجيل عن الأمر، وهكذا يتكلم الكبير مع الطفل.

تخيل طفلاً جائعاً حقاً؛ حين تضع الأم الطعام على المائدة ويرى الطفل ما قُدّم، فإنه على استعداد للبكاء بفارغ الصبر، ويقول: «ما فائدة هذا القليل، إذا كنت سأبقى جائعاً بعد أن أتناوله؟». ربما ينفد صبر الطفل ويرفض بسهولة البدء بتناول الطعام، لأن هذا القليل لا يمكن أن يفيد في أي شيء، ولكن الأم، التي تعرف جيداً أن الأمر برمته مجرد سوء فهم، تقول: «نعم نعم، يا صديقي الصغير! كلّ هذا الآن أولاً، وبعد ذلك يمكننا الحصول على المزيد». ثم يبدأ الطفل. فماذا يحدث؟ يشبع الطفل قبل أن يأكل نصفه! لو وبخت الأمّ الطفلَ على الفور وقالت: «هناك أكثر مما يكفي»، لما أخطأت الأم في ذلك بالتأكيد، ولكنها لم تقدم بسلوكها مثالاً للحكمة التي هي في الحقيقة جزء من التربية، وهو ما فعلته بالمقابل الآن. وكذلك الحال مع الإنجيل، إذ ليس الأمر الأكثر أهمية بالنسبة إلى الإنجيل هو التوبيخ والتعنيف؛ ما هو أكثر أهمية بالنسبة إلى الإنجيل هو جعل الناس يتبعونه، ولهذا السبب يقول: «اسعَ أولاً». وبذلك يوقف ــ إذا جاز التعبير ــ كل اعتراضات الإنسان ويسكته، ويجعله يبدأ أولاً بهذا السعي، ثم يرضي هذا السعي الإنسان بطريقة تجعله الآن يبحث بسهولة وحصرياً عن ملكوت الله.

اطلبوا أولاً ملكوت الله، أيّ كونوا مثل الزنبقة والطير، أيّ اصمتوا تماماً أمام الله، وحينئذٍ يُضاف إليكم الباقي.

II

«ما من أحد يستطيع أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض أحدهما ويحب الآخر. وإما أن يلزم أحدهما ويزدري الآخر»

يا مستمعي! كما تعلم، هناك غالباً ما يكون حديث عن «إما ــ أو» في العالم(8)، وهذه «إما ــ أو» تثير قدراً كبيراً من الاهتمام، وتشرك مختلف الناس بطرق مختلفة، في الأمل، والخوف، والنشاط المزدحم، والكسل المتوتر، وما إلى ذلك. أنت تعلم أيضاً، أنه في هذا العالم نفسه هناك حديث مفاده أن «إما ــ أو» غير موجودة، وأن هذه الحكمة قد أثارت ضجة بقدر ما أثارها (كتاب) «إما ــ أو» الأكثر أهمية، ولكن هنا، في صمت الزنبقة والطير، هل ينبغي أن يكون هناك شك في وجود «إما ــ أو»؟ أو ينبغي أن يُشك هنا ما تكون هذه «إما ــ أو»؟ أو ينبغي أن يُشك هنا، فيما إذا كانت هذه «إما ــ أو» بالمعنى العميق ليست الوحيدة؟

لا، لا يمكن أن يكون شك في ذلك هنا، في هذا الصمت المهيب. ليس فقط تحت سماء الله، بل في هذا الصمت المهيب أمام الله. هناك «إما ــ أو»: إما الله أو... حسناً، فالباقي ليس له صلة بالموضوع؛ أيًّا ما يختاره الإنسان، إذا لم يختر الله، فإنه يخسر «إما ــ أو»، أو أنه في الهلاك بسببها وبالتالي: أما الله، كما ترى، فلا يوجد أي تأكيد بديل على الإطلاق إلا على النقيض من الله، إذ يقع التركيز بشكل غير محدود على الله، حيث يكون الله في الواقع هو الذي ــ من خلال كونه موضوع الاختيار بنفسه ــ يشدد قرار الاختيار، ليصبح في الحقيقة «إما ــ أو».

هل يمكن لأي إنسان أن يفكر باستخفاف أو جدية، أنه حيث يكون الله حاضراً بوصفه الواحد، هناك في الواقع ثلاثة أشياء للاختيار بينها؟ إنه ضائع، أو إنه خسر الله، وبذلك لن يكون هناك بالنسبة إليه في الواقع «إما ــ أو». فمع الله، حين يختفي مفهوم الله أو يتشوه، فإن «إما ــ أو» تختفي أيضاً. ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا لأحد ما في الصمت مع الزنبقة والطير؟

وعليه «إما ــ أو»؛ فإما الله، وكما يوضح الإنجيل هذا، إما أن تحبوا الله أو تكرهوه.

نعم، حين يكون هناك ضجيج من حولك، أو حين تكون منغمساً في اللهو، يبدو هذا وكأنه مبالغة تقريباً، ويبدو أن هناك مسافة كبيرة جداً بين الحب والكراهية، بحيث لا يمكن لأحد التقريب بينهما، في نفس واحد، في فكرة واحدة، في كلمتين، تتبعان بعضهما على الفور من دون جُمل تابعة، من دون عبارات اعتراضية لإنتاج اتفاق أكبر، من دون أدنى علامة ترقيم كذلك. غير أنه في الواقع، كما يسقط الجسم بسرعة لا نهائية حين يوضع في فراغ، يفعل الصمت هناك مع الزنبقة والطير. يجعل الصمت المهيب أمام الله هذين المتناقضين يتلامسان ويتنافران في اللحظة نفسها تماماً. في الواقع، يظهران إلى الوجود في اللحظة نفسها؛ إما للحب أو للكراهية. وكما أن الفضاء الخالي من الهواء لا يشكل عاملاً ثالثاً يؤخر سقوط الجسد، فهل يشكل هذا الصمت المهيب أمام الله عاملاً ثالثاً يمكنه أن يبقي الحب والكراهية على مسافة متباعدة بينهما؟

إما الله؛ وكما يوضح الإنجيل، إما أن تعتصم به أو أن تزدريه. في صحبة البشر، وفي التعاملات اليومية، وفي صحبة كُثر، يبدو أن هناك مسافة كبيرة بين التمسك بأحدٍ ما واحتقاره؛ يقول أحدهم: «لست بحاجة إلى الارتباط بهذا الإنسان»، «ولكن لا يترتب على ذلك، بأي حال من الأحوال، أنني أحتقره، إطلاقاً.» وهذا هو الحال أيضاً بالنسبة لكثير من الناس الذين يختلط بهم الشخص في صحبة عابرة ومن دون حميمية جوهرية وبلا مبالاة إلى حد ما. ولكن كلما قل العدد حقاً ــ بمعنى أوسع أصبح الاتصال الاجتماعي أقل، أي أصبح أكثر انطوائية ــ تبدأ «إما ــ أو» بأن تصبح قانوناً للعلاقة. والاتصال مع الله هو، بالمعنى العميق وبلا قيد وشرط، غير جماعية. لنأخذ فقط الحبيبين اللذين يكونان في علاقة غير جماعية أيضاً، لأنها ــ على وجه التحديد ــ جوّانية جداً، والقاعدة بالنسبة إليهما وإلى علاقتهما هي: إما أن نتمسك ببعضنا بعضاً أو يحتقر كلّ منا الآخر. والآن في الصمت أمام الله مع الزنبقة والطير، حيث لا يوجد أحد حاضر على الإطلاق، وحيث لا يوجد أي ارتباط آخر لك على الإطلاق إلا الارتباط بالله، نعم، القاعدة هي: إما أن تتمسك به أو تزدريه. فلا عذر، لأنه لا يوجد غيره. وعلى أيّ حال لا يوجد أحد غيره حاضر على نحوٍ بحيث يمكنك أن تتمسك به من دون احتقار الله؛ لأنه في هذا الصمت بالتحديد يتضح مدى قرب الله منك.

الحبيبان قريبان جداً من بعضهما بعضاً، إذ إن أحدهما، ما دام الآخر على قيد الحياة، لا يمكن أن يتمسك بآخر من دون أن يحتقره؛ وهنا تكمن «إما ــ أو» في هذه العلاقة. لأن وجود «إما ــ أو» (إما التمسك أو الاحتقار) يعتمد على مدى قرب الاثنين من بعضهما بعضاً. ولكن الله، الذي لا يموت بالتأكيد، هو أكثر قرباً إليك، أقرب بلا حدود من عاشقين، هو خالقك وحافظك، الذي تحيا فيه وتتحرك وتوجد، هو الذي لديك بنعمته كل شيء. لذا، ليس من المبالغة؛ إما أن تتمسك بالله أو تحتقره، وليس الأمر كما لو أن إنساناً يقترح «إما ــ أو» من أجل شيء تافه، إنساناً يمكن أن يقال عنه لذلك بشكل صحيح «إنه فظ». ليس هذا هو الحال هنا. فمن ناحية، الله بالتأكيد هو الله، ومن ناحية أخرى، لا يضع «إما ــ أو» في علاقة مع شيء تافه، ولا يقول: إما وردة أو خزامى، ولكنه يضعها فيما يتعلق بنفسه ويقول: إما أنا...؛ إما أن تتمسك بي بلا قيد أو شرط في كل شيء، أو تزدريني. وبخلاف ذلك، من المؤكد، لا يستطيع الله مع ذلك أن يتحدث عن نفسه. إذا كان على الله ــ أو إذا كان قادراً ــ أن يتحدث عن نفسه، كما لو أنه بلا

قيد ولا شرط الرقم واحد، وكما لو أنه لم يكن الوحيد، وكلّ شيء بلا شرط، بل مجرد نوع من شيء ما، يأمل أحد ربما أن يؤخذ أيضاً في الحسبان؛ فلا بد أن الله قد فقد نفسه، وفقد مفهومه عن نفسه، ولن يكون إلهاً!

إذن، هناك، في الصمت مع الزنبق والطير، «إما ــ أو»، إما اللّه...، ويُفهم على النحو الآتي: إما أن تحبه أو تكرهه، إما أن تتمسك به أو تحتقره.

فماذا تعني هذه الـ «إما ــ أو»؟ ما الذي يطالب اللّه به؟ لأن «إما ــ أو» هي مطلب، كما يطلب العاشقون بالطبع الحب، حين يقول أحدهم للآخر «إما ــ أو»/ولكن اللّه لا يعاملك كحبيب، ولا أنت تتعامل معه كحبيب. العلاقة مختلفة؛ إنها علاقة المخلوق بالخالق. ماذا يقتضي اللّه، إذن، بهذه «إما ــ أو»؟ يطلب الطاعة، طاعة غير مشروطة. إذا لم تكن مطيعاً في كل شيء من دون قيد أو شرط، فأنت لا تحبه، وإذا كنت لا تحبه، فأنت تكرهه؛ إذا لم تكن مطيعاً في كل شيء بلا شرط، فأنت لا تتمسك به، أو إذا لم تتمسك به بلا شرط، وفي كل شيء، فأنت لا تتمسك به، وإذا لم تتمسك به، فعندئذٍ أنت تحتقره!

هذه الطاعة غير المشروطة ــ أي إذا لم يحب أحد اللّه، فإنه يكرهه، وإذا لم يتمسك به بشكل غير مشروط وفي كل شيء، فإنه يحتقره ــ يمكنك أن تتعلمها من المعلمين الذين يشير إليهم الإنجيل، ومنهما الزنبقة والطير.

يُقال: إنه من خلال تعلم الطاعة، يتعلم المرء أن يسيطر، ولكن الأمر الأكثر يقيناً هو أنه من خلال طاعة المرء لنفسه، يمكنه أن يُعلّم الطاعة. وكذلك الحال مع الزنبقة والطير؛ ليس لديهما القوة على إجبار المتعلم على ذلك، ليس لديهما سوى طاعتهما الخاصة على الإكراه. الزنبقة والطير هما «المعلمان المطيعان». أليس هذا كلاماً غريباً؟ في حالات أخرى، فإن لفظة «مطيع» هي الكلمة التي يستخدمها المرء للإشارة إلى المتعلم، والمطلوب منه أن يكون مطيعاً؛ ولكن هنا المعلم نفسه هو المطيع! وبماذا يعلم؟ بالطاعة! وكيف يعلم؟ من خلال الطاعة! إذا استطعت أن تصبح مطيعاً مثل الزنبقة والطير، فستتمكن أيضاً من تعليم الطاعة من خلال الطاعة، ولكن بما أنه لا أنت ولا أنا مطيعان على هذا النحو، فلنتعلم من الزنبق والطير: **الطاعة.**

قلنا: هناك مع الزنبقة والطير يكون الصمت، ولكن هذا الصمت أو ما سعينا إلى تعلمه ــ أن نكون صامتين ــ هو في الحقيقة الشرط الأول للقدرة على الصوت. حين يكون كل شيء من حولك صمتاً مهيباً، كما هو الحال هناك، وحين يكون هناك صمت بداخلك، حينئذٍ تدرك، وتدرك ذلك بتأكيدٍ لا محدود، حقيقة هذا: يجب أن تحب الرب إلهك وتخدمه وحده، وتدرك أنك وحدك الذي يجب أن تحب اللّه بهذه الطريقة، أنت وحدك في العالم كله، أنت وحدك في محيط الصمت المهيب حقاً، وحيداً على نحوٍ تجعل كل شك وكل اعتراض وكل عذر وكل نزهة وكل سؤال؛ باختصار كل صوت، يتحول صمتاً في داخلك. وكلّ صوت ــ أيّ كل صوت غير صوت اللّه الذي من حولك وفيك ــ يتحدث إليك من خلال الصمت. إذا لم يكن هناك مثل هذا الصمت من حولك وفيك قط، فما تعلمت ولن تتعلم الطاعة أبداً، ولكن إذا تعلمت الصمت، فمن المؤكد أنه سيكون من الممكن أن تتعلم الطاعة.

راقب الطبيعة من حولك. في الطبيعة، كل شيء هو طاعة، طاعة غير مشروطة. هنا «تتم مشيئة اللّه، كما في السماء كذلك على الأرض»(9)؛ أو إذا ذكر أحدٌ ما الكلمات المقدسة بطريقة أخرى، فإنها تظل ملائمة: هنا، في الطبيعة، «تتم مشيئة اللّه على الأرض كما في السماء».

في الطبيعة، كل شيء هو طاعة غير مشروطة، وهنا ليس الأمر كذلك فحسب ــ كما هو الحال في عالم البشر أيضاً ــ بما أن اللّه هو القدير، فلا شيء يحدث، حتى لو كان صغيراً، من دون إرادته. لا، هنا كذلك، لأن كل شيء هو طاعة غير مشروطة، ولكن هذا، مع ذلك، هو بالتأكيد فرق لا نهائي؛ لأنه ــ أولاً ــ لا يمكن لإنسان واحد ولا كل الجنس البشري الأكثر جبناً وتحدياً أن يفعل حتى أصغر شيء ضد إرادته، وهو القدير. وثانياً، تتم مشيئته، لأن كل شيء يطيعه بلا شرط، لأنه لا إرادة أخرى هناك سوى إرادته في السماء والأرض، وهذا هو الحال في الطبيعة، لأن كل شيء يطيعه من دون قيد أو شرط. في الطبيعة، كما يقول الكتاب المقدس: «لا يسقط عصفور على الأرض من دون إرادته»(10)، وهذا ليس لأنه القدير فحسب، بل لأن كل شيء هو طاعة غير مشروطة. إرادته هي الشيء الوحيد؛ لا يوجد هناك حتى أدنى اعتراض، لا تسمعُ كلمة ولا تنهيدة، والعصفور المطيع بلا قيد أو شرط يسقط على الأرض في طاعة غير مشروطة حين تكون هذه إرادته. في الطبيعة، كل شيء هو طاعة غير مشروطة؛ همسة الريح، وصدى الغابة، وهديل الجدول، وهمهمة الصيف، وهمسة أوراق الشجر، وهسهسة العشب، وكلّ صوت، كلّ صوت تسمعه. كلّ هذا هو الامتثال والطاعة غير المشروطة، وبذلك تسمع اللّه فيه كما تسمعه في تلك الموسيقى، التي هي حركة الأجرام السماوية في طاعةٍ. والاضطراب العنيف للريح، ومرونة السحب الخفيفة، وانسياب البحر كقطرة وتماسكه، وسرعة شعاع الضوء، وسرعة الصوت الأعظم؛ كلها طاعة. وشروق الشمس في ساعة معينة، وغروبها في ساعة معينة، وتحول الريح بأمر من اللّه، وتغير ارتفاع المد والجزر وهبوطه في أوقات محددة، واتفاق فصول السنة في تناوبها الدقيق؛ كل شيء، كل شيء، طاعة.

نعم، هل كان هناك نجم في السماء يريد أن تكون له إرادته الخاصة، أو ذرة من غبار على الأرض؟ هما يُفنيان في اللحظة نفسها، وبالسهولة نفسها، لأن كل شيء في الطبيعة لا شيء. إذا فهمنا هذا على نحو، إنه لا يوجد شيء آخر سوى إرادة اللّه غير المشروطة، وفي اللحظة نفسها التي لا تكون فيها إرادة اللّه غير مشروطة، فإنها تكف عن الوجود.

فلننظر، إذن، ومن منظور بشري، إلى الزنبقة والطير عن كثب، حتى نتعلم الطاعة. الزنبقة والطير مطيعان للّه من دون قيد أو شرط. إنهما بارعان في هذا. إنهما يفهمان، كما يليق بالمعلمين، أن يلبيان ببراعة ما يفتقده للأسف معظم الناس ويخفقون فيه «ما هو غير مشروط»، لأن هناك شيئاً واحداً لا يفهمه الطير والزنبقة بلا شرط، وهو للأسف، ما يفهمه أغلب الناس على أفضل وجه «أنصاف التدابير». إن قليلاً من العصيان ــ وألّا يكون عصياناً غير مشروط ــ هو أمر لا يستطيع الطير والزنبقة فعله، ولن يفهماه. وإن أصغر وأصغر عصيان قد يحمل حقاً اسماً آخر غير «احتقار اللّه»، هو ما لم تفهمه الزنبقة والطير، ولن يفهماه. إنه يجب أن يكون هناك أي شيء آخر أو أي شخص آخر يمكن للإنسان، وهو منقسمٌ، أن يخدمه إضافة إلى خدمة اللّه، وألّا يعني هذا أيضاً احتقاراً للّه، وهذا شيء لا يستطيع الطير والزنبقة فهمه، ولا يريدان أن يفهماه. أيّ أمان رائع في أن نختار، وفي أن تكون حياة المرء في غير المشروط! ومع ذلك، أوه! أيها المعلمون العميقون! هل كان من الممكن حقاً العثور على الأمان في مكان آخر غير اللامشروط، لأن المشروط في حد ذاته هو بالتأكيد انعدام الأمان؟!

إذن، ينبغي بالتأكيد، أن أتحدث بشكل مختلف، ينبغي ألّا أُعجب بالأمان الذي يواجهون به غير المشروط، بل يجب بالأحرى أن أقول إن غير المشروط على وجه التحديد، هو الذي يمنحهم الأمان الرائع الذي يجعلهم معلمي الطاعة. نظراً لأن الزنبقة والطير مطيعان بلا قيد أو شرط للّه، فإنهما بسيطان جداً أو ساميان جداً في طاعتهما إلى درجة أنهما يعتقدان أن كل ما يحدث هو إرادة اللّه غير المشروطة، وأنه ليس لديهما أي شيء آخر يفعلانه على الإطلاق في العالم عدا تنفيذ مشيئة اللّه في طاعة غير مشروطة أو الخضوع لإرادة اللّه في طاعة غير مشروطة.

إذا كان المكان المخصص للزنبق مؤسفاً حقاً قدر الإمكان، بحيث يمكن التنبؤ بسهولة بأنه سيكون زائداً تماماً طوال حياته، من دون أن يلاحظه أحد يمكن أن يجد فيه متعة. إذا كان المكان والمناطق المحيطة به ــ نعم، لقد نسيت أن الزنبق مَن أتحدث عنه ــ مؤسفاً «محبطاً» للغاية، بحيث إنه لا يُزارُ فحسب، بل يُتَجنّب، فالزنبقة المطيعة تجد نفسها مطيعة لظروفها، وتزهر بكل جمالها.

ربما نقول نحن البشر، أو إنسان في وضع الزنبقة: «هذا عبء لا يطاق، حين يكون المرء زنبقة وجميلاً مثل الزنبقة، ثم يُخصّص مكان في مثل هذا الموقع، ويجب عليها أن تُزهر هناك، في بيئة غير مواتية قدر الإمكان، تهدف إلى تدمير الانطباع عن جمالها. لا، إنه أمر لا يطاق، إنه بالتأكيد تناقض من جانب الخالق!» ربما هذه هي الطريقة التي يفكر بها أي إنسان، أو نحن البشر، ونتحدث لو كنا في مكان الزنبقة، وحينها سنذبل من الغم. ولكن الزنبقة تفكر بشكل مختلف، فهي تفكر على هذا النحو: «بالتأكيد، لا أستطيع تحديد المكان والظروف بنفسي. لذا، فإن هذا ليس من شأني على الإطلاق؛ أن أقف حيث أقف هي مشيئة اللّه». على هذا النحو تفكر الزنبقة. وإن الأمور هي في الواقع كما تفكر ــ أنها مشيئة اللّه ــ يمكن رؤيتها من مظهرها، لأنها جميلة. ولم يرتد سليمان بكل مجده مثل هذه الملابس. آه! إذا كانت هناك زنبقة تختلف عن زنبقة أخرى في جمالها، فلا بد أن تحصل هذه الزنبقة على الجائزة؛ فهي تملك جمالاً إضافياً، لأنه لا يوجد فن حقاً لتكون جميلاً حين تكون زنبقة، إلّا أن تكون جميلاً في هذه الظروف

وفي مثل هذه البيئة المحيطة، التي تفعل كل شيء لإعاقتها، أن تكون على طبيعتك تماماً في مثل هذه البيئة، وتحافظ على النفس، وأن تسخر من كل قوة البيئة المحيطة، لا، لا لتسخر، فالزنبقة لا تفعل ذلك، بل لتكون خالية من كل الهموم تماماً في كل جمالها. فالزنبقة نفسها، على الرغم من محيطها، لأنها مطيعة لله بلا شرط، ولأنها طاعة غير مشروطة لله، فهي خالية من الهموم بلا شرط، وهو ما لا يمكن أن يكون عليه إلا أولئك المطيعون بلا شرط، ولا سيّما في مثل هذه الظروف. ولأنها هي ذاتها بالكامل وخالية من الهموم بلا قيد أو شرط ـ وهما شيئان يتوافق بعضهما مع بعض بشكل مباشر وعكسي ـ فهي جميلة. يمكن للمرء، من خلال الطاعة غير المشروطة فقط، أن يختار بدقة بلا شرط المكان الذي يجب أن يقف فيه؛ وحين يختار بلا شرط، يفهم أنه لا يهم بلا شرط، إذا ما كان «المكان» عبارة عن قمامة.

حتى لو كان الموقف الذي تواجهه الزنبقة لحظة ظهورها على وجه التحديد ـ وهي لحظة مؤسفة قدر الإمكان، وغير مواتية إلى حد أنها بقدر ما تستطيع أن تقدر مقدماً بنوع قريب من اليقين ـ يمكن للزنبقة أن تتنبأ بأنها ستنكسر في تلك اللحظة بالذات. عندئذٍ يصبح كونها هو هلاكها. في الواقع، يبدو الأمر كما لو أنها جاءت إلى الوجود وأصبحت جميلة فحسب لكي تهلك.

تجد الزنبقة المطيعة نفسها مطيعة هناك، وتعرف أن هذه هي إرادة الله، وتزهر. إذا رأيتها في هذه اللحظة، فلن يكن هناك أدنى مؤشر إلى أن هذا التطور كان أيضاً هلاكها. لقد نمت بصورة كاملة، وأزهرت بخصب وجمال شديدين، وواصلت خصبة وجميلة للغاية، لأن الأمر برمته كان مجرد لحظة، لقد قابلت هلاكها بالطاعة غير المشروطة. من المؤكد أن أي إنسان أو نحن البشر، في مكان الزنبقة، سوف نيأس من فكرة أن الصيرورة والفناء شيء واحد، ثم، بسبب اليأس، نمنع أنفسنا من أن نصبح ما كان من الممكن أن نصبح عليه، ولو لحظة واحدة. الأمر مختلف مع الزنبقة؛ لقد كانت مطيعة من دون قيد أو شرط، لذلك بقيت نفسها في الجمال. لقد أصبحت حقاً كل إمكانيتها، من دون إزعاج، وبلا شرط من فكرة أن تلك اللحظة بالذات كانت موتها.

آه! لو كانت إحدى الزنابق تختلف عن أخرى في جمالها، فلا بد أن تُمنح هذه الزنبقة الجائزة، فهي تملك جمالاً إضافياً، أن تكون جميلة على هذا النحو على الرغم من يقين الهلاك في اللحظة نفسها. والحقيقة؛ إن الإنسان حين يواجه هلاكه، لابد أنه يتحلى بالشجاعة والإيمان ليوجد بكل جماله، ووحدها الطاعة غير المشروطة يمكنها أن تفعل ذلك. وكما أشرنا، فإن يقين الهلاك من شأنه أن يزعزع الإنسان، فلا يحقق إمكاناته التي منحت له بالفعل، على الرغم من أنه لم يُمنح إلا الوجود الأقصر. سيقول «لأي غرض؟» أو «لماذا؟»، أو سيقول: «ما الفائدة التي ستعود عليه من ذلك؟» وعندئذٍ لن يكشف عن كل إمكاناته، بل يختلق الأعذار بأنه مشلول وقبيح المظهر، وانتهى مقدماً في هذه اللحظة. وحدها الطاعة غير المشروطة يمكنها أن تواجه بدقة «اللحظة» من دون قيد وشرط؛ وحدها الطاعة غير المشروطة هي التي يمكنها استخدام «اللحظة»، من دون إزعاجها بلا شرط باللحظة التالية.

حين تحل لحظة الهجرة ـ على الرغم من أن الطير متأكد تماماً، وفقاً لفهمه، من أن الأمر جيد تماماً كما هو، وأن السفر يعني التخلي عما هو مؤكد من أجل فهم ما هو غير مؤكد ـ فإن الطير المطيع يبدأ بالرحلة على الفور. بطريقة بسيطة، وبمساعدة الطاعة غير المشروطة، فإنه يفهم شيئاً واحداً فقط، يفهمه من دون شرط، أن الآن هو اللحظة غير المشروطة.

حين يواجه الطير قسوة هذه الحياة ويُختبَر في المصاعب والمصائب، حين يجد كل صباح يوماً بعد يوم، عشّه قد أُزعج، يبدأ الطير المطيع كل يوم من جديد بالعمل بالاهتمام والرغبة نفسها التي أظهرها في المرة الأولى؛ بسهولة وبمساعدة الطاعة غير المشروطة، يفهم شيئاً واحداً، يفهمه بلا شرط، أن هذا هو عمله، وأنه معني فقط بأدائه.

حين يتعين على الطير أن يجرب شر هذا العالم، ويتعين على الطير المغرد الصغير الذي يغني لمجد الرّب أن يتحمل تسلية طفل شقي في السخرية منه، لكي يزعج بذلك المهابة إن أمكن؛ أو حين يجد الطير الوحيد بيئة يحبها، غصناً محبوباً يحب الجلوس عليه بشكل خاص، وربما عزيزاً عليه من خلال أعز ذكرياته، ثم هناك إنسان يستمتع بإبعاده من هذا المكان برمي حجر أو بطريقة أخرى. للأسف! إن الإنسان لا يكلّ في الشر، مثل الطير ـ على الرغم من طرده وإخافته ـ لا يكل عن السعي في العودة إلى حبه وإلى مكانه القديم. الطائر المطيع يتحمل ـ بلا شرط ـ كل شيء. بطريقة بسيطة وبمساعدة الطاعة غير المشروطة، يفهم شيئاً واحداً فقط، يفهمه بلا شرط، وهو أن كل ما يحدث له بهذه الطريقة لا يعنيه حقاً! أيّ إن هذه الأمور لا تعنيه إلا بطريقة غير حقيقية، أو بتعبير أدق: إن ما يعنيه فعلاً، ولكن بلا شرط أيضاً، هو الخضوع لله في طاعة غير مشروطة.

وهذا هو الحال مع الزنبقة والطير اللذين يجب أن نتعلم منهما. لهذا السبب، لا ينبغي أن تقول «الزنبقة والطير يمكن أن يكونا مطيعين بسهولة»، لأنهما في الواقع، لا يستطيعان فعل أي شيء آخر، ولا يستطيعان القيام بذلك بشكل مختلف. أن تصبح نموذجاً للطاعة بهذه الطريقة، يعني أن تصنع فضيلة من الضرورة. لا ينبغي لك أن تقول أي شيء من هذا القبيل. عليك ألّا تقول أي شيء على الإطلاق. عليك أن تصمت وتطيع، لأن الأمر إذا كان خلاف ذلك؛ أن الزنبقة والطير يفعلان فضيلة من الضرورة، فقد تنجح أيضاً في صنع فضيلة من الضرورة. فأنت أيضاً خاضع بالفعل للضرورة. إن مشيئة الرّب تتحقق بالفعل في كل الأحوال. لذا، اسعَ إلى أن تصنع من الضرورة فضيلة من خلال تنفيذ مشيئة الرّب بطاعة غير مشروطة. إن مشيئة الرّب تتحقق بالفعل في كل الأحوال، لذلك احرص على أن تجعل من الضرورة فضيلةً من خلال الخضوع لإرادة الرّب بطاعة غير مشروطة، بحيث يمكنك ـ فيما يتعلق بتنفيذ مشيئة الله وتحملها ـ أن تقول عن نفسك بصدق: «لا أستطيع أن فعل أي شيء آخر. لا أستطيع أن أفعل ذلك بأيّ طريقة أخرى».

بعد ذلك ينبغي لك أن تجتهد، ويجب أن تضع في حساباتك أنه مهما كان عليه الموقف مع الزنبقة والطير الآن أيضاً، إذا كان من الصعب حقاً على الإنسان أن يكون مطيعاً بلا شرط، فهناك أيضاً خطر على الإنسان، خطر قد يجعل الأمر سهلاً عليه، إذا جاز لي القول: «خطر التفريط بصبر الله». فهل سبق لك أن فكرت بجدية في حياتك الخاصة، أو فكرت في حياة البشر، في عالم البشر الذي يختلف تماماً عن الطبيعة، حيث كل شيء هو طاعة غير مشروطة؟ هل فكرت في هذا الأمر من قبل، من دون أن ترتعد، مدى الحقيقة في تسمية الله نفسه «إله الصبر»؟ هل أدركت أن الله ـ الذي يقول «إما ـ أو»، والذي يُفهم على أنه يعني «إما أن تحبني أو أن تكرهني، إما أن تتمسك بي أو تحتقرني» ـ لديه الصبر الكافي ليتحملك ويتحملني ويتحملنا جميعاً؟!

لو كان الله إنساناً، فماذا إذن؟ منذ زمن بعيد كان لا بد أن يتعب ويملّ مني (لأتخذ نفسي مثالاً) ومن التعامل معي، وكان لابد أن يقول ما يقوله الآباء البشر، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة تماماً: «إن هذا الطفل شقي ومريض وغبي وبطيء الفهم، وإن كان هناك شيء جيد مع ذلك في الأمر، فإن هناك كثيراً من الشر فيه، ولا يمكن لأي إنسان أن يتحمله.» كلا، لا يمكن لأي إنسان أن يتحمله، وحده إله الصبر يستطيع ذلك.

والآن، فكروا في عدد لا يحصى من البشر الذين يعيشون! فنحن البشر نتحدث عن أنه عمل صبور أن تكون معلم مدرسة لأطفال صغار. يا إلهي! الذي لا بد أن يكون معلماً لهذا العدد الذي لا يحصى من الأطفال، يا له من صبور! وما يجعل الحاجة إلى الصبر أعظم بلا حدود، هو أنه حين يكون الله هو المعلم، فإن كل الأطفال يعانون تقريباً بشكل أو بآخر من الوهم بأنهم أشخاص كبار، وهو الوهم الذي تكون الزنبقة والطير حرة منه تماماً، وهذا بالتأكيد هو السبب الذي يجعل الطاعة غير المشروطة تأتي إليهم بسهولة.

قد يقول معلم مدرسة بشري: «كل ما ينقصنا، كل ما ينقصنا فحسب، هو أن يتخيل الأطفال أنهم أشخاص بالغون، عندئذٍ يتوجب على المرء أن يفقد الصبر ويبأس؛ لأنه لا يمكن لأي إنسان أن يتحمل ذلك». لا، لا يستطيع أي إنسان أن يتحمل ذلك، وحده إله الصبر القادر على ذلك. وكما ترى، لذلك يسمي الله نفسه إله الصبر. وهو يعرف قطعاً ما يقوله. لا يخطر في باله أن يسمي نفسه على هذا النحو، حين يكون في مزاج. كلا، فهو لا يتغير في مزاجه، إذ هذا بالتأكيد نفاد صبر. فهو يعرف هذا منذ الأزل، وعرفه من آلاف وآلاف السنين من الخبرة اليومية، لقد عرف منذ الأزل، أنه ـ طالما الحياة الزمانية تدوم والجنس البشري فيها ـ لا بد أنه يكون إله الصبر، وإلّا فالعصيان البشري غير محتمل. إن الله، في علاقته بالزنبقة والطير، هو الخالق الأبوي والرزاق، أما بالنسبة إلى الإنسان فهو إله الصبر. وصحيح بما يكفي، أنها تعزية؛ تعزية نحن في أمسّ الحاجة إليها ولا توصف، ولهذا السبب يقول الكتاب المقدس أيضاً إن الله هو إله الصبر، و«إله العزاء»(11)؛ ولكن من المؤكد أيضاً أنها قضية خطرة للغاية، أن يكون

عصيان الإنسان هو سبب في أن اللهَ هو إله الصبر، وهي قضية خطرة جداً أن الإنسان لا يأخذ الصبر عبثاً. لقد اكتشف الإنسان في الله صفة لم يعرفاها الزنبقة والطير المطيعان دائماً بلا شروط، أو كان اللّه محباً للإنسان إلى درجة كافية ليتجلى له أنه يتمتع بهذه الصفة، بأنه صبور. ولكن على هذا النحو ـ أوه! يا لها من مسؤولية مخيفة! ـ إن عصيان الإنسان يقابله ـ بمعنى ما ـ صبر اللّه. وهذا هو العزاء، ولكن يخضع لمسؤولية رهيبة. يجرؤ الإنسان على أن يعرف أنه حتى لو تخلى عنه جميع البشر، وحتى لو أوشك أن يتخلى عن نفسه، فإن اللّه يبقى إله الصبر، وهذه ثروة لا تقدر بثمن. أوه! ولكن استخدمها بشكل سليم، وتذكّر أنها مدخرات، ومن أجل اللّه في السماء استخدمها بشكل سليم، وإلا فإنها تُغرقك في بؤس أعظم، وتتحول إلى نقيضها، ولن تعود عزاءً، بل تصبح أفظع الاتهامات الموجهة إليك. فإذا كان هذا يبدو لك قولاً صعباً للغاية، على الرغم من أنه ليس أصعب من الحقيقة ـ أن الإخفاق في التمسك بالرّب غير المشروط وفي كل شيء، يعني على الفور احتقاراً له ـ فأن تأخذ صبر الرّب عبثاً، بأنه احتقاره، لا يمكن بالتأكيد أن يكون قولاً صعباً جداً.

لذا، احرص على أن تتعلم الطاعة من الزنبقة والطير حسب تعليمات الإنجيل. لا تدع نفسك تتراجع خائفاً، ولا تيأس، حين تقارن حياتك بحياة هذين المعلمين. ليس هناك ما يدعو إلى اليأس، لأنك يجب أن تتعلم منهما فعلاً؛ ويعزيك الإنجيل أولاً بإخبارك أن الرّب هو إله الصبر، ولكنه يضيف: يجب أن تتعلم من الزنبقة والطير، تعلم أن تكون مطيعاً من دون قيد أو شرط مثلهما، وتعلم ألا تخدم سيّدين، لأنه لا يمكن لأحد أن يخدم سيدين. يجب عليه «إما... أو».

ولكن إذا استطعت أن تصبح مطيعاً بلا شرط مثل الزنبقة والطير، فقد تعلمت ما كان عليك أن تتعلمه، وقد تعلمت ذلك من الزنبقة والطير (وإذا كنت قد تعلمت هذا حقاً، فقد أصبحت بهذه الطريقة أكثر كمالاً، إذ إنّ الزنبقة والطير بعد أن كانا معلمين يصبحان الصورة). لقد تعلمتِ أن تخدم سيداً واحداً فقط، وأن تحبه وحده، وتتمسك به بلا شرط في كل شيء. وعندئذٍ، فإن الصلاة، التي تتحقق بالفعل على أي حال، ستتحقق من قلبك حين تصلي إلى اللّه: «لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض»؛ لأنه في الطاعة غير المشروطة، تكون إرادتك واحدة مع إرادة اللّه، فتتم إرادة اللّه، التي هي في السماء، من خلالك على الأرض. وعندئذٍ ستُسمع صلاتك أيضاً حين تصلي: «لا تدخلنا في غواية»؛ لأنك إذا كنت مطيعاً للّه بلا شرط، فليس هناك شيء ملتبس فيك، وإذا لم يكن فيك شيء ملتبس، فأنت هي البساطة المثالية أمام اللّه. هناك شيء واحد لا يستطيع كل مكر الشيطان وكل فخاخ الإغراء أن تباغته أو تأسره، إنه البساطة. وما يبحث الشيطان بنظرته الحادة ليكون فريسة له ـ ولم يوجد قط لدى الزنبقة والطير ـ وما يهدف كل الإغراء إليه، محدد بفريسته ـ ولم يوجد قط عند الزنبقة والطير ـ فهو ملتبس. وحيثما يكون الملتبس، يكون هناك الإغراء، وهو بسهولة أقوى هناك.(12) ولكن حيثما يوجد غموض، يكون هناك أيضاً عصيان تحته، بطريقة أو بأخرى. ولهذا السبب تحديداً، أنه لا يوجد شيء غامض على الإطلاق في الزنبقة والطير، لأن الطاعة غير المشروطة تكون أعمق وفي كل مكان في الأساس، ولهذا السبب على وجه التحديد، لأنه لا يوجد شيء غامض في الزنبقة والطير، فمن المستحيل أن نقود الزنبقة والطير إلى الإغراء. حيث لا يوجد شيء غامض، يكون الشيطان عاجزاً، وحيث لا يوجد شيء غامض يكون الاغراء عاجزاً؛ مثل صائد الطيور بشراكه، حين لا توجد طيور لاكتشافها، ولكن مجرد أصغر بصيص من الغموض، يكون الشيطان قوي والإغراء آسر. وهو حاد النظر، وهو الشرير الذي تُدعى شراكه غواية، وتُسمى فريسته روح الإنسان. إن الإغراء لا يأتي في الواقع منه، ولكن لا شيء، لا شيء غامض يمكن أن يخفي نفسه عنه. وإذا اكتشف ذلك فالإغراء يتحالف معه. أما الإنسان الذي يختبئ من خلال الطاعة غير المشروطة في اللّه، فهو آمن بلا شرط. يستطيع أن يرى الشيطان من مخبئه الآمن، لكن الشيطان لا يستطيع رؤيته. ومن مخبئه الآمن ـ لأنه بقدر ما يكون الشيطان حاد البصر حينما يتعلق الأمر بالغموض، فإنه يكون أعمى بالقدر نفسه حينما ينظر إلى البساطة ـ يصبح أعمى أو يصاب بالعمى. لكن المطيع بلا شرط لا ينظر إلى الشيطان من دون أن يرتعد؛ تلك النظرة اللامعة التي تبدو وكأنها تستطيع أن تخترق الأرضَ والبحر وأخفى خبايا القلب، والتي يمكنها ذلك بالفعل، ومع ذلك فهو بهذه النظرة يكون أعمى! ولكن إذا كان من ينصب شراك الإغراء، أعمى فيما يتعلق بمن يستتر باللّه من خلال طاعة غير مشروطة، فإذن، لا يوجد لذلك الإنسان أي إغراء حقاً، لأن «اللّه لا يغوي أحداً». وهكذا سُمعت صلاته: «لا تقدنا إلى الغواية»، أيّ لا تسمح لي مطلقاً بالعصيان، بالخروج من مخبئي. ولو أنني مع ذلك ارتكبت عصياناً، فلا تطردني على الفور من مخبئي، الذي خارجه أُقاد على الفور إلى الغواية. وإذا بقي هو عندئذٍ في مخبأه في طاعة غير مشروطة، فإنه أيضاً «يُنقذ من الشر».

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين. إما أن يحب واحداً ويكره الآخر، أو يتمسك بواحد ويحتقر الآخر، لا يمكنكم أن تخدموا اللّه والمال، ولا أن تخدموا اللّه والعالم، ولا الخير والشر. وعليه هناك قوتان: اللّه والعالم، الخير والشر. والسبب الذي يجعل الإنسان لا يستطيع أن يخدم إلا سيداً واحداً هو بالتأكيد، أن هاتين القوتين ـ على الرغم من أن إحداهما أقوى من الأخرى بشكل لانهائي ـ هما في صراع مميت فيما بينهما. هذا الخطر الهائل، الخطر الذي يقع فيه الإنسان بالفعل بحكم كونه إنساناً، خطر تنجو منه الزنبقة والطير من طاعتهما غير المشروطة، التي هي براءة سعيدة؛ لأن اللّه لا يتنازع مع العالم ولا الخير والشر بشأنهما. هذا الخطر الهائل، هو أن «الإنسان» موضوع بين هاتين القوتين الهائلتين، والاختيار متروك له. هذا الخطر الهائل هو هذا الذي يجعل المرء إما أن يحب أو يكره، وإن عدم الحب يعني الكراهية؛ لأن هاتين القوتين عدائيتان للغاية إلى درجة أن أقل ميل لأحد الجانبين يُعدّ معارضة غير مشروطة من الجانب الآخر.

إذا نسي إنسان هذا الخطر الرهيب الذي هو فيه ـ ولاحظ جيداً أن محاولة نسيان خطر من هذا النوع ليست بالتأكيد حماية مفيدة ضده ـ إذا نسي هذا الخطر وإذا اعتقد أنه ليس في خطر، حتى لو قال: «سلام ولا خطر»، فلا بد أن تبدو كلمات الإنجيل له مبالغة حمقاء. ولكن للأسف! لأنه غارق على وجه التحديد في الخطر، وضائع، فليس لديه أي فكرة عن الحب الذي يحبه اللّه به، وأن اللّه يطلب الطاعة غير المشروطة بدافع الحب على وجه التحديد، وليس لديه أيّ تصور عن قوة الشر ومكره، وكذلك عن ضعفه. والإنسان منذ البداية طفولي جداً، فلا يكون قادراً على فهم الإنجيل وراغباً فيه. إن حديثه عن «إما ـ أو» يبدو له مبالغة غير حقيقية: إن الخطر سيكون كبيراً، بحيث إن الطاعة غير المشروطة ستكون ضرورية، وإن مطلب الطاعة غير المشروطة يجب أن يكون قائماً على الحب. لا يستطيع الإنسان أن يستوعب هذا في عقله.

إذن، ماذا يفعل الإنجيل؟ الإنجيل، الذي هو حكمة التربية، لا يدخل في جدال فكر أو كلام مع الإنسان ليثبت له أن الأمر كذلك. يعلم الإنجيل جيداً أن الأمر لا يحدث بهذه الطريقة، أن الإنسان يفهم أولاً أن الأمر كما قيل، ثم يقرر أن يطيع بلا شروط. بل على العكس، إن الإنسان من خلال الطاعة غير المشروطة يصل أولاً إلى فهم أن الأمر كما يقوله الإنجيل. لذلك، يستخدم الإنجيل السلطة ويقول: «يجب عليك»، ولكنه في اللحظة نفسها يصبح ألطف، بحيث يكون قادراً على تحريك الأقسى. إنه يأخذ بيدك، كما يقال ـ ويفعل تماماً كما يفعل الأب المحب لطفله ـ ويقول: «تعال! دعنا نخرج إلى الزنبقة والطير.» هناك يستمر قائلاً كما يأتي: «تأمل الزنبقة والطير، استسلم لهما، انغمر فيهما. ألا يحرك مشاعرك هذا المنظر؟» ثم حين يؤثر الصمت المهيب هناك مع الزنبقة والطير فيك بعمق، يشرح لك الإنجيل المزيد ويقول: «ولكن، لماذا هذا الصمت مهيب جداً؟ لأنه يعبر عن الطاعة غير المشروطة، التي يخدم كل شيء بها سيداً واحداً فقط، ويتجه إلى خدمة واحد فقط، متحداً في اتفاق كامل، في خدمة إلهية واحدة عظيمة. لذا، دع نفسك تنجذب نحو هذا الفكر العظيم، لأنه كله مجرد فكرة واحدة، ولأنك تتعلم من الزنبقة والطير»، ولكن لا تنسَ أنه ينبغي لك أن تتعلم من الزنبقة والطير، وأن تصبح مطيعاً بلا شرط مثلهما. فكر في أن خطيئة الإنسان ـ بعدم رغبته في خدمة سيد واحد، أو رغبته في خدمة سيد آخر، أو رغبته في خدمة سيدين، بل عددٍ من السادة ـ أزعجت جمال العالم كله، حيث كان كل شيء في السابق على ما يرام. خطيئته التي زرعت الشقاق في عالم الوفاق؛ واعتبر أن كل خطيئة هي معصية، وكل معصية هي خطيئة.

III

«انظر إلى طيور السماء! إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في الحظائر» غير قلقة في الغد. «فكر في عشب الحقل، وما هو عليه اليوم»

افعل هذا وتعلم: **الفرح**.

إذن، فلنتأمل في الزنبقة والطير، هذين المعلمين المبتهجين. «المعلمان الفرحان» حقًا، لأنك تعلم أن الفرح هو وسيلة تواصل، ومن ثم لا أحد يعلّم الفرح أفضل من الإنسان الفرح نفسه. ليس لدى معلم الفرح ما يفعله حقاً سوى أن يكون هو نفسه فرحاً، أو أن يكون الفرحَ. ومهما كان مسعاه في إيصال الفرح، إذا لم يكن هو نفسه فرحاً، فإن التعليم يكون ناقصاً. ومن ثم، ليس هناك ما هو أسهل للتدريس فيه من الفرح. للأسف! لا يحتاج المرء إلا أن يكون نفسه دائماً سعيداً حقاً.(13) ولكن هذا «الأسف»، يشير إلى أن الأمر ليس بهذه السهولة؛ أيّ ليس من السهل أن تكون نفسك دائماً سعيداً، لأن الأمر حين يكون كذلك، فمن السهل أن نعلم الفرحَ، ولا شيء أكثر تأكيداً من ذلك.

ولكن هناك لدى الزنبقة والطير، أو هناك حيث تعلّم الزنبقة والطير الفرحَ، هناك دائماً فرح. ولا تجد الزنبقة والطير أبداً نفسيهما في موقف محرج كما يحدث أحياناً للمعلم البشري، الذي يسجل ملاحظاته التعليمية على ورقة أو يضعها بين كتبه. باختصار، في مكان آخر، وليس معه دائماً؛ لا، بل هناك، حيث تعلّم الزنبقة والطير الفرح، هناك دائماً فرح. إنه، في نهاية المطاف، في الزنبقة والطير. يا لها من فرحة حين ينبلج النهار ويستيقظ الطير باكراً على فرح النهار! يا لها من فرحة، ولو بنغمة مغايرة، حين يحل المساء ويهرع الطير إلى عشه! ويا لها من فرحة يوم الصيف الطويل! يا لها من فرحة حين يبدأ الطير أغنيته بفرح، ليس كعامل مبتهج يغني في عمله فحسب، بل لأن عمله الأساسي هو الغناء! يا لها من فرحة جديدة، حين يبدأ جاره أيضاً بالغناء، ثم الجار الذي على الجانب الآخر من الطريق، ثم تنضم الجوقة كلها! يا لها من فرحة! وحين يحدث الأمر، في النهاية، تردد الغابة والوادي والسماء والأرض صدى بحر من النغمات، حيث يمرح الطير الذي أطلق النغمة الافتتاحية. الآن، بفرح فيه: يا لها من فرحة! يا لها من فرحة! وهكذا هي حال حياة الطير بأكملها: في كل مكان ودائماً يجد شيئاً ما، أو بالأحرى، يجد ما يكفي ليفرح به. فهو لا يهدر لحظة واحدة، بل يعدّ كل لحظةٍ لا فرح فيها ضائعة.

يا لها من فرحة حينما يسقط الندى وينعش الزنابق التي بردت الآن واستعدت للراحة! يا لها من فرحة، حينما تجف الزنابق بعد الاستحمام بشكل حسي بأول شعاع من ضوء الشمس! ويا لها من فرحة يوم الصيف الطويل! آه! انظر إليهما على أي حال! تأملوا الزنبقة، وتأملوا الطير! وانظروا إليهما معاً! أيّ فرحة، حينما يختبئ الطير خلف الزنابق، حيث يوجد عشه، وحيث يشعر براحة لا توصف، وهو يمزح لقضاء الوقت مع الزنابق ويستميلها! يا لها من فرحة حينما يراقب الطير من مكان عالٍ على الغصن، أو من مكان أعلى، أعلى من السحابة، بسعادةٍ عشّه والزنبقةَ التي ترفع نظرها نحوه مبتسمة! وجودٌ نابض بالحياة، سعيد، وغني جداً بالفرح! أو ربما يكون الفرح أقل، لأن القليل هو، بمفهوم ضيق، ما يجعلهما سعيدين للغاية، أو إن الفرح ربما يكون أقل، لأنه إذا فهمنا الأمر على نحو ضيق، فإن الأمر يتطلب القليل جداً لمنحهم مثل هذا الفرح. كلا، إن هذا الفهم الضيق هو في الواقع سوء فهم. للأسف! سوء فهم محزن ومؤسف للغاية؛ لأن حقيقة أن ما يجعلهما سعيدين للغاية هي دليل على أنهما هما ذاتهما الفرح، والفرح نفسه.

ولكن، هل هذا صحيح حقاً؟ إذا كان ما أنت سعيد به ليس شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك كنت في الحقيقة سعيداً سعادةً لا توصف، فسيكون هذا أفضل دليل على أنه هو نفسه الفرح، والفرح نفسه. مثل الزنبقة والطير، معلمي الفرح السعيدين اللذين، فقط لأنهما سعيدين بلا شروط، هما الفرح نفسه.

على سبيل المثال: إن الإنسان الذي يتوقف فرحه على شروط معينة ليس هو الفرح نفسه؛ ففرحه في نهاية المطاف هو فرح الظروف ومشروط بها. لكن، هذا الذي هو الفرح في حد ذاته، يكون فرحاً بلا شرط، أو على العكس من ذلك، من هو سعيد بلا شرط فهو الفرح نفسه. أوه! تُسبب لنا الظروف لكي نصبح مبتهجين ــ نحن البشر ــ كثيراً من المتاعب والقلق. حتى لو توفرت جميع الظروف، فقد لا نكون على أي حال مبتهجين بلا شروط. ولكن، أيّها المعلمون العميقون بالفرح! أليس صحيحاً أنه لا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك، لأنه بمساعدة الظروف ــ ولو كانت جميع الظروف ــ فمن المستحيل بالطبع أن نصبح أكثر من فرح مشروط، والواقع أن الشروط ومن يخضع للشروط متطابقان بعضهما مع بعض؟!

كلا، وحده الشخص الفرح بلا شرط، هو الذي يكون الفرح نفسه، وفقط من خلال أن يكون فرحاً بلا شروط، يصبح الشخص الفرحَ نفسه.

ولكن، ألا يمكن للمرء أن يذكر بإيجاز تام إلى أي مدى يكون الفرح هو محتوى تعليم الزنبقة والطير، أو ما محتوى تعليمهم هذا في الفرح؟ أي، ألا يمكن للمرء أن يذكر بإيجاز شديد قواعد الفكر في تعليمهم هذا؟

نعم، يمكن القيام بذلك بسهولة؛ فمهما يكون الطير والزنبقة بسيطان أيضاً، فمن المؤكد أنهما ليسا طائشين. وكيلا ننسى في هذا الصدد، أن لدينا بالفعل اختصاراً غير عادي، أن الزنبقة والطير هما نفسهما ما يعلمانه؛ إنهما يعبران عن الموضوع الذي يعلمان فيه كمعلمين، وهذا يختلف عن الأصالة المباشرة والأولى، حيث إن الزنبقة والطير بالمعنى الدقيق للكلمة لديهما بشكل مباشر ما يعلمانه؛ «الأصالة المكتسبة». وهذه الأصالة المكتسبة في الزنبقة والطير، بطبيعة الحال، هي في المقابل بساطةٌ؛ لأن كون التدريس بسيطاً لا يعتمد إلى حد كبير على ما إذا كانت تُستخدم التعابير اليومية البسيطة، أو لغة رفيعة المستوى ومتعلمة(14). كلا، البساطة هي أن المعلم نفسه هو ما يعلم فيه. وهكذا هو الحال مع الزنبقة والطير، ولكن تعليمهما في الفرح، الذي تعبر حياتهما بدورها عنه، هو باختصار شديد على النحو الآتي: إنه يوجد يوم واحد اليوم؛ إنه موجود. والواقع أن هناك تأكيداً لا نهائياً على هذه الـ «يوجد». إنه يوجد يوم واحد اليوم، وليس هناك أي قلق ــ على الإطلاق ــ بشأن الغد أو بعد غد. هذه ليست حماقة من الزنبقة والطير، بل هي فرح الصمت والطاعة، لأنك حينما تلتزم الصمت في الصمت المهيب الذي هو في الطبيعة، فإن يوم الغد لا وجود له؛ وحينما تطيع كما يطيع المخلوق، فإن يوم الغد لا وجود له، ذلك اليوم المشؤوم الذي هو اختراع الثرثرة والمعصية. ولكن حينما لا يكون يوم الغد موجوداً بسبب الصمت والطاعة، فإن اليوم موجود في الصمت والطاعة، وعندئذٍ تكون الفرحة كما هي في الزنبقة والطير.

ما الفرح؟ أو ما هو أن تكون سعيداً؟ إنه في الحقيقة أن تكون حاضراً أمام نفسك؛ ولكن أن تكون حاضراً أمام نفسك حقاً، هو هذا « اليوم»، وهذا أن تكون اليوم، أن تكون اليوم حقاً. وبالدرجة نفسها التي تكون فيها أصدق ما أنت عليه اليوم، كلما كنتَ أكثر حضوراً لنفسك في الوجود اليوم، لا يكون يوم الشقاء غداً موجوداً بالنسبة إليك. الفرح هو الوقت الحاضر، مع التركيز الكامل على الوقت الحاضر. لذلك، مبارك اللّه الذي يقول منذ الأزل: «اليوم»(15)، هو الحاضر إلى الأبدبدسأدا وإلى ما لا نهاية في وجوده اليوم. وهذا هو السبب في أن الزنبقة والطير هما الفرح، لأنهما بالصمت والطاعة غير المشروطة حاضران تماماً في وجودهما اليوم.

لكنك تقول: «الزنبقة والطير، يستطيعان بسهولة». الإجابة: يجب ألّا تأتي بكلمة «لكن»، وتعلّم من الزنبقة والطير، كما هما، أن تكون نفسك حاضراً تماماً في وجودك اليوم؛ عندئذٍ تكون أنت أيضاً الفرح. غير أنه، كما قيل، بلا «لكن»، فالأمر جدي؛ يجب أن تتعلم الفرح من الزنبقة والطير. وبدرجة أقل، قد تعلق أهمية على نفسك؛ فلأن الزنبقة والطير بسيطان، ربما تشعر بأنك إنسان ذكي، وتتحدث عن غد معين، وتقول: «بالتأكيد الزنبقة والطير يمكنهما أن يفعلا ذلك بسهولة، هذان اللذان ليس لديهما حتى غد ليبتليا به، ولكن الإنسان ليس لديه بالتأكيد مخاوف بشأن يوم الغد فحسب، وما سيأكله، بل بشأن الأمس أيضاً، ما أكله ولم يدفع ثمنه!».

لا، لا توجد نكتة تربك التعليم بوقاحة، ولكن تعلم؛ ابدأ ــ على الأقل ــ في التعلّم من الزنبقة والطير. بالتأكيد، لا يمكن لأحد أن يصدق بجدية أن ما يفرح به الزنبقة والطير وما شابه ذلك، ليس شيئاً يُفرح به! وعليه، إنك أتيت إلى الوجود، وإنك موجود، وإنك «اليوم» تحصل على ما هو ضروري لكي تكون موجوداً، وإنك أتيت إلى الوجود، وأصبحت إنساناً؛ إنك تستطيع أن ترى. فكر في أنك تستطيع أن ترى، وأن تسمع، وأنك تملك حاسة الشم، وتستطيع التذوق، وتستطيع أن تحسّ، وأن الشمس تشرق من أجلك، وحينما تتعب الشمس، يبدأ القمر من أجلك بالتألق، وتضاء النجوم. وسيأتي فصل الشتاء، وتتكرر كل الطبيعة وتتظاهر بأنها غريبة، وتفعل ذلك لإرضائك، بأنه

سيكون الربيع، وأن الطيور ستأتي في أسراب عدة، ولتفرحك، فإن اللون الأخضر ينبتُ، والغابة تنمو بشكل جميل وتزدهي كعروسة(16). ولإرضائك، فإن الخريف سيأتي، والطيور تهاجر بعيداً. لا، لتجعل نفسها ثمينة، آه! لا، ولكن كيلا تشعر بالملل منها، وتخفي الغابة زينتها للمرة القادمة، كي تتمكن في المرة القادمة أن تفرحك. فهل من المفترض أن يكون هذا شيئاً لا يستحق الفرح!

آه! لو تجرأتُ على التأنيب! ولكني احتراماً للزنبقة والطير لا أجرؤ على ذلك. ولهذا، بدلاً من القول إنه لا يوجد أي شيء نفرح به، سأقول: إذا لم يكن هذا أمراً يستحق الابتهاج، فإذن لا يوجد ما نفرح به. فكر بأن الزنبقة والطير هما الفرح، ومع ذلك، إذا فهمنا الأمر بهذه الطريقة، فإن لديهما بالتأكيد ما يفرحان به وأقل بكثير مما لديك، أنت الذي لديك ــ بالتأكيد ــ الزنبقة والطير أيضاً اللذان تفرح بهما. لذا، تعلّم من الزنبقة وتعلم من الطير، اللذين هما المعلمان اللذان يُوجدان، واللذان هما موجودان اليوم، وهما الفرح. إذا لم تستطع أن تنظر بفرح إلى الزنبقة والطير، اللذين هما الفرح في حد ذاته بالتأكيد؛ إذا لم تستطع أن تنظر إليهما بفرح، بحيث تصبح راغباً في التعلم منهما، فإن حالتك تشبه حالة الطفل الذي يقال عنه «ليس نقص القدرة، بل إن الأمر سهل إلى درجة أنه لا يمكن الحديث عن نقص القدرة. لا بد أن يكون شيئاً آخر، مع ذلك، ربما مجرد افتقار إلى الرغبة والطاقة في فعل شيء، والذي لا ينبغي التسرع في الحكم عليه بشكل صارم ومعاملته على أنه عدم رغبة أو حتى على أنه تمرد».

وهكذا، فإن الزنبقة والطير هما معلمان في الفرح. ومع ذلك، فإن لهما أيضاً أحزاناً، كما لدى الطبيعة بأكملها أحزان. ألا تئن الخليقة كلها تحت وطأة الفناء الذي تعرضت له ضد إرادتها؟(17) كل شيء عرضة للهلاك! النجم مهما كان ثابتاً في السماء، بل أكثرها ثباتاً، سيغير مكانه في السقوط، والنجم الذي لم يغير موقعه قطّ سيغير موقعه يوماً ما حين يسقط في الهاوية. وسوف يتغير هذا العالم كله وبكل ما فيه، كما يغير الإنسان الثوب(18) حينما يُلقى فريسة للهلاك! وحتى لو نجت الزنبقة من مصير إلقائها فوراً في الفرن، فلا بد أن تذبل بعد أن عانت سابقاً من هذا وذاك. وحتى لو سُمح للطير بالموت بسبب تقادم عمره، فلا بد أن يموت في وقت ما، منفصلاً عن حبيبته، بعد أن عانى من هذا وذاك. آه! كل شيء قابل للهلاك، وكل شيء سوف يصبح في مرحلة ما ــ على ما هو عليه ــ فريسة للهلاك. الهلاك الهلاك، ذلك هو الأنين، لأن الخضوع للهلاك هو ما يعنيه الأنين. الحبس، والتقييد في السجن، ومضمون الأنين هو الهلاك الهلاك!

ومع ذلك، فإن الزنبقة والطير فرحان بلا قيد ولا شرط. وهنا ترى بحق مدى صحة قول الإنجيل: «سوف تتعلم الفرح من الزنبقة والطير». بالتأكيد لا يمكنك أن تطلب معلّما أفضل من ذلك الذي، على الرغم من أنه يحمل حزناً عميقاً لا نهاية له، فإنه يفرح بلا شروط، وهو الفرح نفسه.

كيف ــ إذن ــ تتعامل الزنبقة والطير مع هذا الأمر الذي يبدو تقريباً وكأنه معجزة؛ في أن يكونا سعيدين في أعمق الحزن بلا شروط؛ وحين يكون الغد مخيفاً للغاية، يكونان اليوم سعيدين بلا شروط؟ كيف يتدبران الأمر؟

إنهما يتصرفان بكل بوضوح وبساطة، كما يفعلان ذلك دائماً، ومع ذلك يتخلصان من هذا الغد وكأنه غير موجود. هناك قول مأثور للرسول بولس(19)، مفاده أن الزنبقة والطير قد أخذا الأمر على محمل الجد، وعلى الرغم من بساطتهما، فهما يأخذانه حرفياً تماماً. آه! وهذا على وجه التحديد، لأنهما يأخذانه حرفياً تماماً، هو ما يساعدهما. تتمتع هذه الكلمات بقوة هائلة، حين تؤخذ حرفياً تماماً، وحين لا تؤخذ حرفياً، وفقاً للحرف تماماً، فإنها تكون عاجزة إلى حد ما، وفي النهاية مجرد مجاز لا معنى له. ولكن البساطة غير المشروطة مطلوبة من أجل فهمها حرفياً تماماً من دون قيد أو شرط.

«ألقِ بكل همومك وحزنك **على اللّه**». انظر! الزنبقة والطير يفعلان هذا بلا شرط. بمساعدة الصمت والطاعة غير المشروطين، فإنهما يلقيان شيئاً ــ نعم، كما يرمي أقوى منجنيق شيئاً بعيداً عنه، وبعاطفة كتلك التي يتخلص بها الإنسان من أكثر ما يكرهه ــ كلّ حزنهما، ويلقيان به ــ بيقين مثل ذلك الذي يصيب بها أكثر الأسلحة النارية أماناً، وبإيمان وثقة مثل تلك التي لا نجدها إلا لدى أكثر الرماة خبرة ــ في اللّه. في اللحظة نفسها ــ وهذه اللحظة بالذات هي من لحظة أولى، وهي اليوم متزامنة مع اللحظة الأولى التي توجد فيها ــ في اللحظة نفسها تكون فرحة بلا شرط.

أيّ براعة رائعة! أن تكون قادراً، بطريقة، على السيطرة على كل حزنك مرة واحدة، ثم تكون قادراً على التخلص منه ببراعةٍ كبيرة، وتصيب الهدف بكل يقين! ومع ذلك، فإن هذا ما تفعله الزنبقة والطير، ولهذا فإنهما يشعران بسعادة غير مشروطة في هذه اللحظة بالذات. وهذا أمر سليم تماماً؛ فاللّه القدير يتحمل العالم كله وأحزان العالم كلها ــ بما في ذلك حزن الزنابق والطير ــ بسهولة لا متناهية. يا لها من فرحة لا توصف! الفرحة، تحديداً، برضا اللّه القدير.

فتعلم ــ إذن ــ من الزنبقة والطير، تعلم هذه المهارة غير المشروطة. صحيح بما يكفي، أنه عمل فني رائع، ولكن هذا هو بالضبط السبب الذي يجعلك تنتبه بدقة أكثر إلى الزنبقة والطير. إنه عمل رائع، ويحتوي، مثل «عمل الودَاعَة»(20)، على تناقض، أو إنه عمل يحل تناقضاً. إن كلمة «أن يلقي» تقودنا إلى التفكير في استخدام القوة، وكأننا يجب أن نجمع كل قوانا، ونستخدم قوة هائلة «لإلقاء» الحزن عنا، ومع ذلك، فإن «القوة» هي، على وجه التحديد، ما لا ينبغي استخدامه. وما يجب استخدامه، واستخدامه من دون قيد أو شرط، هو «الإذعان». ومع ذلك يجب علينا أن «نتخلص» من الحزن! ويتعين علينا أن نلقي الحزن عنا، ويتعين علينا أن نتخلص من «كل» الحزن. إذا لم نتخلص من كل الحزن، فإننا سنحتفظ بالتأكيد بكثير منه، أو ببعضه، أو بالقليل منه، ولن يصبح المرء سعيداً، فضلاً عن أن يصبح سعيداً بلا شرط. وإذا لم نلق الحزن على اللّه بشكل غير مشروط بل في مكان آخَر، فلن نتخلص منه؛ إذ إنه يعود ثانية، بطريقة أو بأخرى، وفي أغلب الأحيان في هيئة حزن أعظم وأكثر مرارة. ذلكَ أن التخلص من الحزن من دون إلقاء الحزن على اللّه، هو «تسلية»(21)، ولكن التسلية هي علاج مشكوك فيه وغامض ضد الحزن. وبالمقابل، فإن إلقاء كل الحزن على اللّه بلا شرط هو «تجمع». ومع ذلك، نعم، من المدهش أن هذا العمل الفذ الذي أُنجِزَ من خلال هذا التناقض، التجمع الذي تتخلص من خلاله بلا شرط من كل الحزن!

إذن، تعلّم من الزنبق والطير. ألقِ كل حزنك على اللّه، ولكن لا تنبذ الفرح. بل على العكس، عليك أن تتمسك بثبات به وبكل قوى الحياة. إذا فعلت ذلك، فسيكون الحساب سهلاً وستحتفظ دائماً ببعض الفرح، لأنك إذا تخلصت من كل حزن، فلن تحتفظ إلا بما لديك من فرح، وهذا لن ينفعك إلا قليلاً. لهذا، تعلّم المزيد من الزنبقة والطير. ألقِ كل حزنك على اللّه، تماماً، ومِن دون قيد أو شرط، كما يفعل الطير والزنبقة، وحينئذٍ ستكون سعيداً من دون شرط مثلهما. إنه بالضبط الفرح غير المشروط. عبادة القدرة المطلقة، التي يتّحمل بها اللّه القدير كل حزنك بسهولة لا تعد شيئاً، وهي أيضاً فرحة غير مشروطة. والشيء التالي الذي يضيفه الرسول بالفعل: أن تجرؤ في العبادة على الاعتقاد بأن «اللّه يعتني بك». الفرح غير المشروط هو بالتحديد الفرحُ باللّه، الذي عليه وبه يمكنك أن تفرح دائماً من دون قيد أو شرط. إذا لم تصبح سعيداً بلا شرط في هذا الموقف، فالخطأ يكمن فيك بلا شرط؛ في حماقتك، في إلقاء كل حزنك عليه، في ممانعتك في القيام بذلك، في غرورك، في عنادك... باختصار، يكمن في أنك لست مثل الزنبقة والطير. هناك حزن واحد فقط لا يمكن للزنبقة والطير أن يكونا معلمين بشأنه، وهو حزن لن نتحدث عنه هنا «حزن الخَطِيئة». وفيما يتعلق بجميع الأحزان الأخرى، فإنك إذا لم تصبح سعيداً بلا شرط، فالذنب ذنبك، بأنك لا تريد أن تتعلم من الزنبقة والطير لتصبح سعيداً بلا شرط، باللّه، من خلال صمتٍ وطاعةٍ غير مشروطين.

ولكن هناك شيئاً آخر. ربما تقول مع الشاعر: «نعم، حيثما في وسع المرء أن يبني ويعيش جنباً إلى جنب مع الطير، مختبئاً في عزلة الغابة، حيث يكون الطير وشريكه زوجين، ولكن لا توجد أيّ صحبة، أو حيثما تمكن المرء أن يعيش مع الزنبق في سلام الحقل، حيث تعتني كل زنبقة بنفسها، وحيث لا توجد أي صحبة، يمكن للمرء بسهولة أن يلقي كل حزنه على اللّه ويكون سعيداً من دون قيد أو شرط. لأن «الجماعة»(22)، تحديداً، هي المصيبة. إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يبتلي نفسه والآخرين بالوهم التعس حول الجماعة ونعيم الجماعة، وأكثر بالدرجة نفسها التي تنمو بها الجماعة يصبح فساده وفساد المجتمع متفاقماً». ولكن لا ينبغي لك أن تتحدث بهذه الطريقة! لا، تأمل الأمر عن كثب واعترف بخجل، أنه على الرغم من الحزن، هناك في الواقع فرحة حب لا توصف. تكون الطيور ذكوراً وإناثاً، أزواجاً، وعلى الرغم من الحزن، هناك في الحالة الفردية فرحة قانعة بذاتها، تكون بها زهرة الزنبق وحيدة، وهذا الفرح ــ في الواقع ــ هو الذي يمنعها من أن تزعج الجماعة؛ لأن الجماعة ــ مع ذلك ــ موجودة. تأمل الموقف عن كثب واعترف بخجلٍ، أن الصمت غير المشروط والطاعة غير المشروطة هما اللذان يكون بهما الطير والزنبقة سعيدين باللّه من غير شروط، وهذا في الواقع ما يجعل الزنبقة والطير سعيدين ــ بقدرٍ متساوٍ ــ في العزلة كما في الجماعة. فتعلم ــ إذن ــ من الزنبق والطير.

وإذا استطعتَ أن تتعلم كيف تكون مثل الزنبقة والطير تماماً، وا حسرتاه! وإذا استطعتُ أن أتعلم ذلك، فستكون هذه الصلاة أيضاً حقيقة فيك كما فيّ. إنها الصلاة الأخيرة في «الصلاة»، التي هي مثال كل صلاة حقيقية، تصلّى بالتأكيد بسعادة غير مشروطة، وفي النهاية لا شيء لديها، لا شيء أكثر من الصلاة من أجله أو الرغبة فيه، ولكنها

تنتهي سعيدة بلا شرط، في تسبيح وعبادة! هذه الصلاة: «لك الملكوت والقوة والمجد».

نعم، له يكون الملكوت. ولذلك، يجب عليك أن تلتزم الصمت بلا شرط لئلا توجه اهتماماً مزعجاً إلى حقيقة وجودك، فمن خلال جلال الصمت غير المشروط تعبر عن أن الملكوت له.

وله تكون القوة. ولذلك، يجب عليك أن تطيع بلا شرط، وأن تكون مطيعاً بلا شرط في الخضوع لكل شيء، لأن له القوة.

والمجد له. ولذلك، في كل ما تفعله وكل ما تعانيه، لديك بلا قيد أو شرط شيء آخر لتفعله، وهو أن تقدم إليه الثناء، لأن المجد له.

أوه! أيها الفرح غير المشروط! إن له الملك والقوة والمجد، إلى الأبد. «إلى الأبد»؛ ها هو هذا اليوم، يوم الأبدية. فهو حقاً لا ينتهي مطلقاً. لذلك، تمسّك بهذا فحسب من دون شرط؛ أن له الملك والقوة والمجد إلى الأبد. حينها سيكون لك «يوم» لا ينتهي أبداً، يوم يمكنك أن تظل نفسك حاضراً فيه إلى الأبد. فلتنهار السماء، وتغير النجوم أماكنها في انهيار كل شيء، وليمت الطير، ولتذبل الزنبقة. في هذا اليوم بالذات ستنجو فرحتك في العبادة، وأنت في فرحك، تنجو من كل هلاك. فكر في ما يهمك، إن ليس كإنسان، فكمسيحي. حتى خطر الموت، من وجهة نظر مسيحية، غير مهم بالنسبة إليك، حيث إنه قيل: «إنك حتى هذا اليوم في الفردوس». ومن ثم، فإن الانتقال من الزمانية إلى الأبدية ــ وهو أكبر مسافة ممكنة ــ سريع للغاية، حتى لو حدث ذلك بهلاك كل شيء، وبسرعة كبيرة، بحيث إنك لا تزال اليوم في الفردوس، لأنك من وجهة نظر مسيحية تقيم في الله.(23) فإذا كنت تقيم في الله ــ سواء عشت أم مت، وسواء سارت الأمور بشكل جيد أم سيء بالنسبة إليك وأنت على قيد الحياة، وسواء مت اليوم أم بعد سبعين سنة أولاً، وسواء كان موتك سيحدث في قاع البحر، في أعمق أعماقه، أو ستنفجر في الهواء ــ فإنك لن تصبح خارج مشيئة الله، بل تبقى نفسك حاضراً في الله. ومن ثم تكون في يوم موتك اليوم في الفردوس إلى الآن.

يعيش الطير والزنبقة يوماً واحداً فقط، يوماً قصيراً جداً، ومع ذلك فهما فرحان، لأنهما ــ كما أوضحنا ــ موجودان حقاً «اليوم»، وحاضران ذاتهما في هذا «اليوم». وأنت، الذي وهبُ لك أطول يوم، لكي تعيش اليوم، وأن تكون حتى اليوم في الفردوس، ألا ينبغي أن تكون سعيداً بلا قيد أو شرط؟ ينبغي لك أيضاً، بما أنك تستطيع أن تتفوق كثيراً على الطائر في الفرح، وما أنت متأكد منه في كل مرة تصلي فيها هذه الصلاة، وما تقترب منه أيضاً في كل مرة تصلي فيها صلاة الفرح هذه بحميمية: «لك الملك والقوة والمجد، إلى الأبد، آمين».

انتهت الترجمة

يوم 15.10.2024

قحطان جاسم ــ الدنمارك

هوامش

(1) انظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى 6: 24 ـ 34، (قال يسوع لتلاميذه). كتب سورن كيركگورد في المخطوطة المطبوعة: «هذا الإنجيل المقدس كتبه الإنجيلي متى، 6: 24 إلى آخره، (قال يسوع لتلاميذه). وفي الهامش: «إنجيل الأحد الخامس عشر بعد الثالوث» انظر: Pap. X 5 B 6,5, s. 207.

(2) إشارة إلى طير Alcedo Ispida، النوع الأوروبي من طائر الرفراف (Alcedinidae)، الذي يشير سورن كيركگورد في مكان آخر إلى أنه يبني أعشاشاً على البحر، راجع journaloptegnelsen FF:49, i SKS 18, 85 ـ 4، و«مذكرات الغاوي» في الجزء الأول. من «إما ـ أو». ويقال عن طائر الرفراف: إنه، من بين الأساطير الكثيرة التي رويت عنه، يبني عشاً يطوف على الماء.

(3) ترجمة لـ Punctum التي تعني نقطة، وتأتي هنا في هذا السياق بمعنى النهاية، أو علامة فصلية أو نهاية الوقت.

(4) ربما يشير هذا إلى ما جاء في إنجيل متّى (18: 1 ـ 5) عن المحادثة بين يسوع وتلاميذه، لمّا سألوه من هو الأعظم في ملكوت السماوات، وحيث يدعوه يسوع طفلاً ويضعه في وسطهم، فيقول: «الحق أقول لكم: إن لم تتوبوا وتصيروا مثل الأطفال، لن تدخلوا ملكوت السماوات. فمن وضع نفسه مثل هذا الطفل فهو الأعظم في ملكوت السماوات، ومن تبنى مثل هذا الطفل باسمي فقد تبناني» (العهد الجديد، طبعة 1819).

(5) انظر، الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، 35: 18

(6) ربما هنا تلميح إلى المفهوم الأرسطي لملكات الروح النباتية والحسية والعقلانية المرتبة تدريجياً، التي طُوِّرَت بشكل أساسي في كتاب أرسطو De anima (في الروح). انظر الكتاب 2، الفصل 3، 414 أ 29 ـ 415 أ 13، ويرتبط هنا بوجهة نظر أرسطو القائلة إن الإنسان يتميز عن الكائنات الحية الأخرى باللوغوس (الكلام/العقل)، الذي يُعَبَّر عنه في السياسة (Statslæren; se 1. bog, kap. 2, 1253a 1010؛Statslæren). وقد عُبّر عن الربط بين هذين التصورين، على سبيل المثال، في ف. س. سيبيرن «طبيعة الإنسان الروحية وماهيته»، مسودة لعلم النفس، الجزء 1 ـ 2، كوبنهاكن 1819؛ حيث جاء في الجزء الأول، الفقرة 3: «إن الحياة العليا تنشأ على أساس الدنيا، كما تظهر بعد ذلك ومع الزمن». وهكذا، في الإنسان بوصفه فرداً، علينا أن نشير أولاً إلى الحياة العضوية أو النباتية المجردة، ثم الحياة الحيوانية، وأخيراً الحياة الروحية العليا. وُضِّحَت العلاقة بين قدرات الروح هذه في الفقرات 7 ـ 9، الصفحات 35 ـ 56. انظر خاصَّة الفقرة 9: «يقف الإنسان على درجة مختلفة تماماً وأعلى في ترتيب الكائنات من جميع الحيوانات الأخرى»، ص50، وكذلك في الملاحظة 2: «اللغة هي أولى خصائص الإنسان وأكثرها ظهوراً»، و«كل طبيعته العليا تتجلى هنا بالفعل»، ص 52.

(7) اقتباس حر من مزمور «مع الحزن والشكوى نبقى في الطريق»، المقطع الأول: «مع الحزن والشكوى نبقى في الطريق/لتعزيك كلمة اللّه وتنصحك/لا تدع القلب يرتكب الخطيئة بالحزن/عند الموت نبدأ الحياة». المرجع:

Evangelisk – christelig Psalmebog til Brug ved Kirke – og Huus – Andagt, Kbh. 1845
(8) ربما يلمح إلى المناقشة في صحة المبادئ المنطقية التي انتشرت في الدنمارك في أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر كاستمرار لمناقشة مماثلة في ألمانيا. يمكن عَدّ «إما ـ أو» شذرة حياة، نشره فيكتور إريميتا (1843) جزئياً بمنزلة مساهمة متأخرة في هذه المناقشة.
انظر على سبيل المثال، SKS 3, 155 og kommentaren til ,49 – fx SKS 2, 47 SKS 3, 166,25 التي قادها من جهة، ج. ب. مينستر وف. سيبيرن على جانب، ومن الجانب الآخر ج. هايبيرج، وإتش إل. مارتنسن، وج. بورنمان. احتلت الصيغة «إما ـ أو» وكلمة «aut/aut» مكاناً مهماً في هذه المناقشة؛ أحياناً كتعبير عن مبدأ التناقض، وأحياناً عن المبدأ الثالث المستبعد، الذي اعترض المتناظرون الثلاثة المذكورون على صحته العالمية. راجع. Philosophiske Smuler (1844)، في
SKS 4، 304.30 305.3 –، .kommentarerne dertil og.
(9) اقتباس بتصرف. انظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى 6:10 (24:10).
(10) اقتباس من إنجيل متى، ويقول فيه: «أما يباع عصفوران بفلس؟ ومع ذلك لا يسقط واحدٌ منهما على الأرض بغير علم أبيكم». انظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى 10: 29.
(11) انظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، رومة 5: 15، 34: 31
(12) تشير على الأرجح إلى رواية لوقا عن المحادثة بين يسوع والجمع حول التهمة الموجهة إليه بطرد الشياطين بوساطة ببعلزبول، رئيس الشياطين. يقول يسوع، الآيات 17 ـ 23: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وبيت منقسم على ذاته يسقط. ولكن إذا كان (أيضاً) الشيطان قد انقسم على نفسه، فكيف ستبقى مملكته دائمة؟ لأنك تقول: أنا ببعلزبول أخرج الشياطين، ولكن إن كنت أنا ببعلزبول أطرد الشياطين، فمن يعلم من يطردهم أبناؤكم؟ لذلك هم الذين سيكونون قضاتكم. ولكن إن كنت أنا أطرد الشياطين بإصبع اللّه فقد أقبل عليكم ملكوت اللّه. حين يحرس الرجل القوي قصره، يبقى ما له في سلام، ولكن حين يأتي من هو أقوى منه ويغلبه، يُنزع سلاحه الكامل الذي كان يعتمد عليه ويقسم غنائمه. من ليس معي فهو ضدي، ومن لا يجمع معي يفرق». انظر: الكتاب المقدس، الإنجيل الجديد، لوقا، 11: 14 ـ 23 (العهد الجديد، المؤرخ 1819).
(13) ربما يُشتغَل على ما كتبه بولس لأهل تسالونيقي في رسالته الأولى: «كونوا سعداء دائماً». انظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، سائل القديس بولس، 5، 16، (العهد الجديد، طبعة، 1819).
(14) ترجمة لـlærde، ويمكن أن تأتي أيضاً بمعنى مثقف، متعلم، إلخ.
(15) من المحتمل أنها إشارة إلى رسالة القديس بولس العبرانيين 4: 7: ثم يقرر {اللّه} يوماً آخر، اليوم، حينما يقول بلسان داود بعد زمن طويل، كما قيل سابقًا في اليوم: «فإذا سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم» (طبعة العهد الجديد 1819). انظر أيضاً رسالة إلى العبرانيين 3، 7، 13، 15. وانظر أيضاً كلمات يسوع للص الذي على الصليب: «الحق الحق أقول لك: اليوم تكون معي في الفردوس».
(16) هنا ترجمة لـ staaer brud، بمعنى حرفي «تقف عروسة». وهي هنا ـ في هذا السياق ـ

استعارة عن تفتح الأزهار البيض في الغابة التي تضيف جمالاً كجمال العروس.

(17) إشارة إلى الكتاب المقدس، الإنجيل الجديد، رسالة بولس إلى أهل رومية، 8: 20 – 22.

(18) يلمح إلى مزمور 102، 26 – 27: «أنت {اللّه} أسست الأرض منذ القديم، والسماوات هي عمل يديك. هم يبادون، وأنت تبقى، وهم كلهم كالثوب يبلون، كثوب تغيرهم، فيتغيرون». طبقاً للعهد القديم الصادر عام 1740.

(19) انظر هنا في تدوينة تحمل الرقم NB11: 168، ربما في حزيران 1849، من تدوينات كيركگورد اليومية، حيث كتب: من الغريب أنني في «الخطابات الإلهية الثلاثة» نسبت إلى بولس الكلمة التي هي لـ (بطرس): «كل أحزانك على اللّه». انظر التعليق التالي. كان الرأي العام في وقت سورن كيركگورد أن بيتر إل. سمعان بطرس، أحد الرسل الإثني عشر، كان مؤلف رسائل بطرس الأولى والثانية. راجع، على سبيل المثال، الفقرة 3 في مقالة «بطرس» في الكتاب المقدس لبوخنر Büchner's biblische Real – Hand – und Verbal – Concordanz (11,2), s. 1002.. الرسول بولس: الشخصية الأكثر أهمية في أقدم المسيحية، ربما أُعدم نحو 65 في روما. الرسائل الـ 13 التي سُلّمت في العهد الجديد تحت اسم بولس كانت تعدّ جميعها أصلية بشكل عام، واليوم سبع أو تسع رسائل منها تعد أصلية، بما في ذلك الرسالة إلى أهل رومية، والرسالتان إلى أهل كورنثوس، والرسالة إلى أهل غلاطية.

(20) على الأرجح أنه يشير إلى القسم الذي يحمل عنوان «حملي خفيف»، ويبدأ بالكلمات: «ما هي الوداعة إلا أن نحمل العبء الثقيل بخفة، كما يحمل الصبر والعناد»، «الخفيف عبء ثقيل»، في رقم 2 «كيف يكون الحمل خفيفاً والمعاناة ثقيلة؟» في «إنجيل الآلام». انظر: سورن كيركگورد «الخطب المسيحية»، القسم الثالث من الخطب التنويرية بأرواح مختلفة (1847)، فى سورن كيركگورد، الأعمال، 8، س. 339 – 345.

(21) يمكن أن تترجم أيضاً تسلية، ترويحة، حيرة، خبل، لهو، وغيرها.

(22) ترجمة لـ Selskab، وهي تأتي عادة بمعنى صحبة، رفقة، مجالسة، مصاحبة، حفلة، وأيضاً شركة. لكن كيرككورد هنا أراد أن يشير إلى التجمع والحشد، وقد ترجمتها إلى «جماعة» و«مجتمع» و«جمع» حسب السياق الذي وردت فيه ورمت إليه.

(23) ربما يتلاعب برسالة يوحنا الأولى 3: 24: «ومن يحفظ وصاياه {يسوع المسيح} يقيم في اللّه واللّه فيه» (العهد الجديد، طبعة 1819)؛ ورسالة يوحنا الأولى 4: 15: «من اعترف أن يسوع هو ابن اللّه، فاللّه يقيم فيه وهو في اللّه» (العهد الجديد، طبعة 1819)؛ رسالة يوحنا الأولى 4: 16 (17: 18).